Orient. Seminar
UNIVERSITÄT
78 Freiburg/Br.
Inv.
Az 14/8

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثالث عشر بعد المئة

١ يونيو سنة ١٩٤٨ ٢٣ رجب سنة ١٣٦٧

التكافل الاشتراكي

نظرية مّا في النظام الاجتماعي

٦ – موانع التكافل الاشتراكي (١)

(١) طغيان المصلحة : فردية أو جماعية (٢) التطفل (٣) جمود النظامات (٤) تفاوت فرص الحياة (٥) تنافر الاستجابات : هو استغلال الرخص القانونية بما يحلل من روابط التكافل الجماعي ، كاتخاذ وسائل النشر الحر سبيلا لمصلحة فردية أو جماعية ، نيلها مضر بناحية منهما ، وطبيعة المجتمع السليم القائم على القواعد التكافلية يتطلب ما نسميه تناسق الاستجابات (٦) تكاتف سلطات عليا على استذلال السلطة الجماعية الطبيعية أو محوها : كتكاتف سلطات الحكم وسلطات الدين على استذلال الجمهرة التي هي مصدر كل السلطات

طغيان المصلحة

بلغنا الآن من البحث مبلغاً نظنه كافياً للتعريف بصورة مجملة من نظريتنا في التكافل الاشتراكي ، تمكننا من الكلام في موانع ذلك التكافل . وينبغي لي أن أنبه هنا إلى أن موانع التكافل كثيرة متعددة ، لو أردنا أن نلمّ بها لاحتجنا الى فراغ كبير لا يتسع له صدر بحث موجز كبحثنا هذا . وانما نقتصر على الكلام في بعض صوره الظاهرة ، وان كانت من أفعل ما يصد الجماعات عن بلوغ الطور التكافلي في حياتها الجماعية .

---

(١) نشرنا خمسة البحوث السابقة في اعداد ديسمبر : ١٩٤٧ ويناير وفبراير وابريل ومايو : ١٩٤٨

تكلمت من قبل في الحرية الفردية وفي المساواة الجماعية ، وأبنت أن الحرية قد تطغى على مصالح الجمعية كما أبنت أن المساواة وهمٌ من أوهام العقل .

كتب باحث نفساني كتاباً أسماه « نهاية وهم » وقصد بذلك الدِّين . وما كان أجدره أن يعقب عليه بكتاب آخر يسميه « بداية وهم » قاصداً بذلك مبدأ المساواة الذي يقوم عليه كل نظام ضمامي : Collectivist أو كما يسميه البعض « النظام الجماعي »

وبشَّر الشيوعيون للعالم بما سموه « تحكميَّة الجماهير » ، ونعني بها « دكتاتورية الجماهير » وهي عبارة غامضة المعنى إن لم تكن عارية من المعنى بتاتاً ، ولكنك تستبين معناها اذا علمت أن ما قصد بتحكمية الجماهير Dictatorship of the Proletaria انما هو تحكمية فردية تستذل « تحكمية الجماهير » ، وهذه هي التحكمية الحقيقية ، التي استعانت الى بلوغ السلطة الفردية الاستبدادية من طريق الوهم ، وهم أن هنالك شيءٌ يقال له تحكمية الجماهير ، وما هي في حقيقة الواقع الا التحكمية في تحكمية الجماهير ، واذا كان المعنى الذي يراد به أن يُستفاد من عبارة تحكمية الجماهير ، هو أن تكون الجماهير مصدر السلطات في نظام شيوعي ، فما هو السبب في قيام دكتاتورية فردية في بلد مثل روسيا مثلاً ؟ ذلك دليل ثابت على أن تحكمية الجماهير ليست غير وهم مضخم .

ولا تقل بعض مظاهر الفردية ضرباً في مهامه الخيال من تلك الأشياء التي ذكرت . من ذلك القول بحق الملوك الالهي ، والقول بأن الكنائس وسلطات الدين موكلة عن الديّان الأعظم في هذه الأرض ، ونزوع بعض الملوك الى الدعوى بأنهم ظلال الله في هذه الدنيا ، وجنوح كثير من أصحاب المصالح الى القول بتقسيم الأرزاق في عالم الغيب ، الى غير ذلك من سخافات العقل وسخافات الوضع .

جماع ذلك أوهام لم يقصد بها إلا تغليب منفعة ناحية من الناحيتين ، ناحية الفردية حيناً ، وناحية الجماعية حيناً آخر ، تغليباً من شأنه القضاء على كل نظام تكافلي في بناء الجمعية بالرغم من أنه النظام الطبيعي الذي ينبغي أن يقضى على كل موانعه حتى يتحقق بالعمل ، ويصبح واقعاً في كل نظامات حرة تحدد للفرد حاجاته التي لا تصد تطوره نحو الكمال وتمكنه من تنمية مواهبه الابتكارية ، وتحدد للجمعية مثل ذلك . وعلى الجملة نقول إن النظام

الطبيعي الذي يجدر أن يكون نظاماً انسانياً هو نظام يقضي فيه على مبدإ التفاضل المصطنع، القائم على مثل الأوهام التي ذكرناها ، ليفسح الطريق لمبدإ التكافل الطبيعي الذي هو نظام الكون الطبيعي في مجموعه، ونظام الحياة العاقلة الذي ينبغي أن يكون .

فكل نظام وكل قانون وكل شريعة تنتهي أغراضها الى طغيان الفرد على الجمعية أو طغيان الجمعية على الفرد، مبدأ من شأنه أن يمنع التكافل، وبالحري من شأنه أن يصد الجمعية والفرد كليهما عن التطور نحو النظام التكافلي . وبقدر ما يكون في النظام أو القانون أو الشريعة من مرونة وليونة تساير حاجات التطور الفردي والجماعي، يقاس مقدار صلاحية ذلك النظام أو القانون أو تلك الشريعة لحياة الافراد ولحاجات الجمعيات .

التطفل

من الظاهرات الاجتماعية التي نماها وضخمها وأرباها وراثات الانسان القديمة، وبخاصة عصر الاقطاعات وعصر الاستبداد الفردي وعصر التحكميات ، سواء أكانت تحكميات أفراد أو تحكميات أقليات ، ظاهرة التطفل في الاجتماع .

نعم نقول إن وراثات الانسان القديمة قد نمت أسباب التطفل الاجتماعي وضخمتها وأربتها. ولكن نخطىء كل الخطأ اذا قلنا إن هذه الوراثات قد خلقت التطفل خلقاً من عدم . ذلك بأن التطفل ظاهرة حيوية لها آثارها الجلي في عالم الحياة ومن ثم يكون لها أثر في المجتمعات الاحيائية ، ولكن آثارها هذه تختلف قوة وضعفاً قياساً على ما ترث كل جماعة من تاريخها الأول. وسنحاول أن نضع تعريفاً للتطفل . ولا أدعي أنه من المستطاع وضع تعريف جامع مانع لهذه الظاهرة . وانما أحاول أن أضع تعريفاً وصفياً أرجو أن يجمع في تضاعيفه المعنى المستفاد من التطفل في عالم الاجتماع .

قد نقول إن الفرد السوي (ونقصد به الوحدة العضوية التي تتألف منها الجمعية) هو الذي يكفل حياته بما فيها من حاجات بقدر من الجهد يبذله بحيث يُنتِج من القيمة قدراً ما يقوم بهذه الكفالة أو يزيد عنها . هو الذي يستخلص من محيطه ما يقوم بحاجات حياته من الضروريات ، أو ذاك الذي يأخذ من غيره من أفراد الجمعية أجراً نقدياً إزاء عمل يؤديه

ولكن الجماعات الانسانية ، حتى البدائية منها ، ومنذ أقدم أزمان التاريخ ، قد منيت

بطراز من الأفراد سعوا الى استخلاص حاجات حياتهم من غيرهم من أفراد الجمعية من غير أن يهبوا الجمعية جهداً يساوي من حيث القيمة ما يستهلكون . هذا الفرد هو الذي يسمى في العرف الاجتماعي طفيلياً أو متطفلاً ، تشبيهاً له بالعضويات التي تعيش متطفلة على غيرها من الأحياء .

فجمعية من الجمعيات يزيد فيها الافراد المتطفلون ، تضعف فيها رابطة التكافل ، وأخرى يقلون فيها ، تقوى فيها رابطة التكافل . فكلما كان انتاج كل فرد موازياً في القيمة لحاجاته، كانت الموازنة بين أجزاء الجمعية أبعد عن التراوح بين الجذب والدفع والأخذ والرد. وأمكن أن يقوم بين أفرادها حالة تكافلية بعيدة عن مؤثرات التزاحم على كسوب غير مشروعة ، ولم يصبح جزء من الجمعية مطالباً ببذل جهد أزيد مما يستطيع أن يحتمل في سبيل القيام بأود الطفيليين من أفرادها .

ولم يقتصر التطفل في الجمعيات الحديثة على الأفراد ، فقد نشأ مع طغيان النظام الرَّسْمَالي ، جماعات متطفلة اغتذت على جهود العمال والصناع والزُّرَّاع ، واتخذت من قوة القوانين والنظام تكأة لتطفُّلها ، ومضت تعبث ، في حدود القانون ، بالقانون وبالشرائع وبالآداب ، بل لعلهم كانوا في حالهم تلك ، أول من أساء استعمال الحق القانونيّ الذي ما كان ليصبح قوة انهائية إلاَّ بالتزامه حدوداً مُعَيَّنة من الترخص فيه ، لا أن يذهب إلى تلك الحدود التي قضت على كل وجه من وجوه التكافل في الجمعية .

* * *

جمود النظامات

لم يخلق الانسان من أجل السبت ، وإنما خلق السبت من أجل الانسان . هذا ما في الانجيل . والقول الحق الآن هو ان الإنسان لم يخلق من أجل النظامات المدنية ، وإنما خلقت النظامات من أجل الإنسان . وكذلك الحال في جميع ما يتعلق بالحياة الانسانية من حيث إنها حياة تطورية ارتقائية . فالقوانين والشرائع والعقائد وضروب الفلسفة بألوانها إنما خلقت ، أي خلقها العقل والطبع ، من أجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان من أجل هذه الأشياء .

وإنما خرج الانسان من وراثاته القديمة بنظامات رمت كلها إلى أن الإنسان خلق من أجل أن يكون عبداً لنظامات معينة ، رقيقاً لقوانين بذاتها وشرائع وآراء ، قامت كلها على فكرة أن الإنسان خلق جامد لا يتطور ولا يتبدّل ، ونظرت في العقل على أنه مبدأ الجموح في الطبيعة البشرية ، وإلى الفكر إلى إنه مبدأ الانقلاب . وإنما يجمح العقل ويرمي الفكر إلى الانقلاب احتجاجاً على قيام حالات لا توائمهما ، كالمعدة إذا اكتظت بالطعام الفاسد احتجّ القلب واحتجت الأمعاء وثارت على الحي تطالبه بأن يفرغ معدته مما فيها . فاحتجاج العقل وثورة الفكر ، إنما هي استجابات طبيعية لنشوء حالات غير طبيعية في المجتمع .

ولكن القوى التي تستفيد من استقرار حالات اجتماعية معينة ، وهي غالباً القوى التي تنتفع أكبر النفع من الحياة التطفلية الوادعة في كنف الحياة العاملة المنتجة ، تعمل دائماً على أن تركز جهدها في حماية النظامات والقوانين والشرائع ، فيصيبها الجمود ، وتخرج عن كونها أشياء خلقت من أجل الانسان في جملته ، إلى أنها أشياء خلقت لأقلية تَرْضَى بها ، دون أكثرية كبيرة تثور عليها .

وإن جمود النظامات ولا شك عامل من أقوى العوامل عن حل رابطة التكافل ، ونذير بفسادها :

* * *

تفاوت فرص الحياة

من شأن النظام الرّسمالي الذي خرجت به الجماعات من وراثاتها القديمة ، أن يجعل فرص الحياة بين الأفراد متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، حتى لقد يقضي هذا التفاوت على مواهب طبيعية وكفايات نادرة ، يحول دون ظهورها وبروزها وتأثيرها في المجتمع ، عجز ماليّ أو اقتصادي .

وفي كل الجماعات القائمة اليوم نظامات تجعل هذا التفاوت ضرباً من العجز يصيب الجماعات في ثمراتها الاحيائية ، ونعني بها الأفراد . فهي تحد من كفايات الأكثرية ، وتفسح الطريق إلى كفايات الأقلية ، في حين أن المعقول والطبيعي أن تنقلب هذه الآية ، فيقوم النظام بحيث يجعل للأكثرية فرصة إظهار ما فيها من الكفايات التي لا تتمتع بها الأقلية وحدها . بل إن طبيعة الأشياء تقضي علينا بأن نعتقد ، ومن طريق احصائي صرف ، أن الكفايات الكامنة

في أكثرية ما ، هي أكبر كمية من الكفايات الكامنة في أقلية ، مع فرض ان هذه الكفايات لا تختلف من حيث النوع والصفة .

وهذا النوع من الكبت له أثره البالغ في التأثير على الحياة التكافلية في الجمعية . ذلك بأن كل فرد في جمعية تكافلية يجب أن يمنح من الفرص قدراً يمكنه من استخدام كفاياته إلى الحد الذي يعجز عنده عن تجاوزه في الحياة .

* * *

تنافر الاستجابات وتجانسها

إذا كان لكل منبه من المنبهات الطبيعية استجابة معينة تحدث في الجسم الحي، فكذلك المجتمع ، كل منبه يصيبه ، لابد من أن يحدث استجابة من ناحية من نواحيه . وقد تتنافر هذه الاستجابات أو تتناسق وتتجانس ، بحسب نوع المنبه واستعداد الجماعة .

على أني اعتقد ان المنبه هو الذي يكيف نوع الاستجابة . فقد يقع في كثير من الحالات ان منبهات مّا قد أحدثت استجابات مخالفة تماماً لما يتوقع منها . وأخرى أحدثت استجابات لم تكن تتوقع . وهذا دليل على أن الجماعات كالاجسام يتكيف استعدادها بصور عديدة ، تعمل في الأثر الذي تخلفه المنبهات فتحدث من الاستجابات ما لا يتلاءم والأثر المنتظر منها .

هنالك شعوب ثارت ثورات حاطمة لأسباب لا تتوازن والمنبهات التي أحدثتها، وشعوب أخرى استكانت وذلت وخضعت لظروف كان من السهل جداً أن تنبذها تلك الشعوب وتخرج من قيودها عزيزة الجانب شامخة الأنف ، بأقل ما يتصوّر من مجهود . ومرت أدوار على أمم استذلتها فيها أساطير وأوهام ، هي من البطلان والضعف بحيث لا يمكن أن يكون لها أثر الى جانب اية قدرة عقلية على التفكير . فالاستجابة الى تلك الأوهام إن هي الا أثر المنبه الذي أحدثها، أثر الاعتقاد في الغيب اعتقاداً قائماً على ان للغيب الأثر الأول في حالات هذه الحياة .

كذلك نجد أن لكل فرصة من فرص الحياة ، وما هذه الفرص الا المنبهات التي تظهر استجاباتها في الأفراد ، سنداً يسندها من نظام أو قانون أو شريعة ، كحرية النشر مثلاً ، وهي

من دعامات الحضارة ، منبه استجابته عند بعض الأفراد الاتجار بالآراء والتضليل ونشر الخرافات والأوهام ، واستجابته عند البعض الآخر نشر النور والعرفان وتزويد الثقافات المختلفة بعواملها الناجحة . وما الحال الأولى الا دليلاً على تنافر الاستجابات، وما الثانية إلا دليلاً على تجانسها .

وما تجانس الاستجابات الا الدليل الأوفى على أن الجمعية فيها من قدرة التكافل قدراً يقضي على تنافرها ، والعكس بالعكس . وعلى هذا يقضي التكافل بأن يقوم النظام بحيث تمحى منه كل الاستجابات المتنافرة لتظل عقدة التكامل قائمة على أساس من تجانس الاستجابات

* * *

تكاتف السلطات

من موانع التكافل الاشتراكي أن تتكاتف سلطتان أو أكثر على الاحتفاظ بحالة معينة ، تطورها مضر بمصالح هذه السلطات . في كثير من حقب التاريخ تضافرت سلطات الحكم وسلطات الدين على قمع الحرية وكبت الفكر . حدث ذلك في مصر القديمة وروما ، وحدث في الأعصر الحديثة في فرنسا ، وظهرت آثاره جلية واضحة في ثورة الفلاحين في المانيا .

وفي حقب أخرى تنافرت مصالح أهل الحكم ومصالح أهل الدين ، فكانت النتيجة أن عمد أهل الدين الى تضليل الجماعات حتى تظل عجينة لينة في أيديهم ويتم خضوعها لهم ، فيتخذون منها أداة لمقاومة طغيان أهل الحكم .

* * *

وهكذا نرى أن الأسباب والحالات التي تمنع من التكافل الاشتراكي في المجتمع كثيرة متعددة ، وهي تستحق أن تكون موضع درس مسهب سنفرغ له عند ما يتم درسنا لهذه النظرية .

اسماعيل مظهر

سحابة

عصفت بها الأنواء فاصطفقت   في صفحة الجوزاء من ذعرِ
فكأنها والريح تزجيها   فلكٌ هوت في لجة الغمر
عاينتها خفقت مصفقة   كجناح نسر حطَّ من وكر
أو كالشراع يرف من قلق   خوف الخضم وزحمة الغمر
ورأيتها والليل معتكرٌ   كملاءة مطوية الستر
والريح تنشرها وتقبضها   قسراً وتزجي القطر بالقطر

* * *

خفقت كأعلام اذا اصطفقت   يوم الوغى من نشوة النصر
وتجيش في الآفاق صاخبةً   مثل الخضم بعسكرٍ وعر
تنساب مثل الصلّ أخضره   طلٌّ همى من ريّق الفجر
واذا ارتمت في الأفق تحسبها   حوتاً يزاحم لجة البحر

* * *

طوت الفضاء الرحب دون هدى   كمشرّدٍ في مهمهٍ قفر
وإذا حدا ركب الرياح بها   سالت مدامعها على النحر
وإذا تملّكها الشجا شهقت   واسترسلت عبراتها تجري
تبكي بكاء الصبّ أوجعهُ   صدُّ الحبيب ولوعة الهجر
أو مثلما هتفت مطوّقة   وهْناً لفرط وساوس الصدر

* * *

آمالنا سحبٌ مشتتةٌ   تُطوى وتُنشر دون ما ندري
تجتاحنا الأيام ساخرة   كالريح تزجي السحب بالزجر
لله آمال مروعة   عبثت بدوحتها يد الدهر
لا تستقر كأنها كرةً   يوماً على حالٍ من الذّعر

(دمشق)   عدنان مردم بك

نظرات في النفس والحياة

- ٨ -

نظرات مارسيل بروست

ينتمي مارسيل بروست إلى أسرة يهودية فرنسية نشأت نشأة مسيحية كاثوليكية وله صلة قرابة بالفيلسوف الفرنسي المشهور هنري برجسون. وكتب مارسيل بروست على صعوبة قراءتها لا يستغني عنها الباحث في النفس. وقد وجد نقاداً ومعجبين به. فمن نُقَّاده من ذكر أنه ينظر إلى الحياة بالمكرسكوب أي العدسة التي يُنظَرُ بها إلى الأمور الصغيرة. فقال بروست انه ينظر بالتلسكوب أي العدسة التي ترى بها الأمور البعيدة والواقع أنه ينظر بالاثنين معاً بالمكرسكوب والتلسكوب. ومنهم من سماه على سبيل الفكاهة مس جين اوستن الفرنسية، يعني القصصية الانجليزية المعروفة وهذا الوصف لا يشابه الحقيقة إلاّ كما تشابه الحقيقة الصورة الكاريكاتورية المبالغ في بعض ملامحها على سبيل الفكاهة. وصحيح انه يتفق وجين أوستن في ولوعهما بأحاديث المجتمعات والمجالس في القصص وأن لكل منهما بصيرة سيكولوجية وإنهما قد يهتماز بالأمور الصغيرة ولكن بروست يتوغل في الأمور السيكولوجية أي النفسية توغلاً لا مثيل له. وقد نشأ مريضاً مُعتَلاً وقضى الثلث الأخير من حياته في بيته لمرضه. وأتهمه ناقد آخر بأنه كان في أكثر قصصه مولعاً بحياة النبلاء والأغنياء ومن اتصل بهم من الخدم وإنه لم يرَ الحياة كاملة من كل وجه كما رآها شكسبير أو بلزاك أو أناتول فرانس ولكن ولوعه بحياة هؤلاء القوم كان ولوع الباحث لا ولوع المعجب المأخوذ بما يرى. وإذا وصل في بحثه إلى حقيقة سيكولوجية فإنها حقيقة في كل النفوس بلا تمييز بين الطبقات. وقد نشأ لاعتلاله بين النساء ولعلّ ذلك أكسبه شيئاً من أسلوب النساء في التحدث عن جيرانهنّ والاهتمام بأحاديث المجتمعات مهما كانت

تلك الأحاديث صغيرة واعطاء تلك الأحاديث في بعض الأحايين قيمة نفسية أكبر من قيمتها. ولكن القارىء إذا صبر على قراءتها عاد بفائدة ما قد تحتويه في بعض الأحايين من الدراسات النفسية التي تتخللها وبالرغم مما قد يعترض القارىء فيها من الملل فإذ في بعض كتبه قطعاً لا يمل القارىء معاودة قراءتها. وقد يستطرد في تتبع البحث النفسي استطراداً بعيداً وله أسلوب شائق في وصف مناظر الطبيعة والناس . وقد اعترف سمرست مُوَام القصصي في كتابه المسمى بالخلاصة ، انه شعر بملل شديد في قراءته كتاب (طريقة جرمانتيس) من كتب بروست، وقد شعرت بمثل هذا الملل ولعلَّ من أسباب الملل أيضاً إن القارىء يود أن يقرأ عن حوادث هامة، وقصصه ليست قصص حوادث بل قصص زيارات وأحاديث أو بحث نفسي ، أو يود أن يقرأ شيئاً من مثل فكاهة أو سخر أناتول فرانس الحيوي . وقد ذكر هافلوك إيليس في كتابه المسمى رقصة الحياة وهو اسم رمزي مدحاً كثيراً لطريقة بروست في البحث النفسي ولا سيما في كتابه المسمى (في الأجمة المزهرة) وأحسب ان هافلوك إيليس كان مصيباً في اختيار هذا الكتاب من كتب بروست ولو أن بعض المعجبين به يفضلون كتابه المسمى (طريقة سوان) ولكني أفضل ما اختاره هافلوك إيليس وأراه أملأ لنفس القارىء . إلاّ إني أرى ان كاتباً مثل بروست لاينال الانصاف التام ولا يعرف مقدار بحثه في النفس إلاّ بقراءة كتبه كلها اذا كان ذلك من المستطاع . وبروست يذكر أن حياة الأثرياء التي يصفها حياة تبعث الملل بالرغم من وجاهتها وزينتها . فاذا كان ذلك حقاً فهو يزيد في براعة فنه الذي به استخلص منها الحقائق النفسية المديدة .

ومن نظراته النفسية ما يلي : —

(١) كثير من الناس يردّدون آراء معاشريهم بشغف واهتمام خاص إذا كانوا لم يعرفوها من قبل ولا يستطيعون الحكم عليها أصواب هي أم خطأ ، وإنما يولعون بترديدها واظهار اللهفة في ذكرها قد يقنعوا السامع انها آراءهم وانهم قادرون على فهمها والحكم عليها .

(٢) قد يسوء رأي المتحدث في سامعه ولكنه مع ذلك يشركه في سماع ذم انسان آخر غائب، كأنما السامع خالياً من صفات الذم التي ذكرها، فيسرع سامعه الى التصديق والموافقة بشغف ولهفة وبضحك ومسرة كي يبعد عن نفسه احتمال الوصف بالصفات المذمومة المذكورة

وهو قد يعرف ان محدثه يغتابه كما اغتاب الغائب ويذمه في غيبته كما ذم الآخر. ولكن ذلك لا يمنعه من مشاركته في ذم المذموم ظنًّا منه ان موافقته قد تبعد الريبة عن نفسه وتمنع محدثه عن اغتيابه في المستقبل. وهذه منه محاولة خائبة ولكنها تتجدد وتبعث الأمل والزهو والارتياح.

(٣) في بعض الأحايين تبدر من انسان شرير بادرة حنان وعطف أو يؤدي معروفاً غير متوقع فنشعر بارتياح نحوه وشكر له أكثر من ارتياحنا وشكرنا إذا كان غير شرير. ولعلّ شكرنا وارتياحنا تلهفاً إلى الاطمئنان من شره وارتياحاً لزوال توقع الشر منه أو سروراً وتعاظماً باختياره إيانا لعطفه وخيره وإن اختار غيرنا شره. وهذا بالرغم من اننا قد نسيء الظن بالباعث الذي بعثه على الخير وهو شرير. ولعلنا لا نشعر بهذه اللهفة والارتياح إذا كان العطف أو المعروف من رجل من أهل الخير لأن العطف أمرٌ مفروض ومتوقع من مثله.

(٤) من طبيعة الكذب أن الكاذب مهما أتقن كذبه، تبدر منه فلتة صغيرة في أثناء إحكام الكذب وحبكه. وهو يظن ان سامعه لا يهتم بالتأكد من صدقها والبحث عن حقيقتها لصغر شأنها. ولكن سامعه قد يتتبعها بالبحث ويتأكد من كذبها فتكون سبباً في كشف كل كذبه وتدعو إلى سوء الظن به وسوء الرأي فيه. وقد تطلع هذه الفلتة الصغيرة سامعه بغتة على كذبه فيُفَاجأ الكاذب مفاجأة غير سارة ويحاول تفسيرها وتلافيها فلا يستطيع. وهذا كما يقال في المجرم الذي يفكر ويتخذ كل أهبة لمنع نسبة الجريمة إليه ثم هو بالرغم من كل تفكيره واحتياطه يترك أمراً صغيراً يدل عليه لا يفطن له ويكون السبب في كشف جرمه.

(٥) متى أقنع الانسان نفسه إنه ذو أخلاق سامية ثم حقد على انسان أو غضب عليه فإنه ربما استطاع أن يحمل نفسه على ارتكاب أي عمل دنيء لاشباع حقده وارضاء غضبه إذ أي شيء لا يكون مُبَاحاً حلالاً للقِدّيس الفاضل والملك الطاهر الذي يراه في نفسه

(٦) بعض المهذبين المثقفين إذا أدّوا خدمة أو أهدوا هدية قللوا من قيمتها وأصغروا من شأنها مجاملة وتأدباً وتلطفاً في العشرة، ولكن بعض من تهدى إليه الهدية أو تؤدى له الخدمة يأخذ قولهم مأخذ الجد فيوافقهم عليه بطريق مباشر او غير مباشر، إمَّا من قبح

الذوق أو قلة العقل أو حبًّا للتعاظم فتكون موافقته لمن أدوا له الخدمة باعثة للامتعاض أو الغيظ فيمتنعون من التلطف والتجمل معه أو من أداء أي خدمة أو صنع أي معروف .

(٧) قد يمدح المادح إنساناً ولا رغبة له في مدحه إلاَّ للتعريض بسامعه كأنَّ المادح يريد أن يقول لسامعه إنه ليس على صفات المدح التي ذكرها في الممدوح . وقد يَتَفَنَّنُ في إظهار قصده المستتر بلباقة تمنع من صراحة المؤاخذة فَيَحَارُ السامع ويرتبك وقد يجاري المادح في مدح الممدوح لا رغبةً في مدحه ولا لأنه يعتقد أن الممدوح يستحق كل هذا المدح وإنما يجاري المادح خشية إذا لم يجاره أن يقال إنه يكره صفات المدح المذكورة في الحديث وإنه خالٍ منها وأنه فطن الى التعريض به وأنه يستحق ذلك التعريض به .

(٨) كانت السيدة فيردوران لا تدعو إلى منزلها من الضيوف إلاَّ من يوافقها على كل رأي مهما كان سخيفاً ، وعلى كل قول مهما كان باطلاً محالاً ، فلم يبق لها من الزوار غير المستذلين المستضعفين . وكانت تقول لهم إن فلانة النبيلة الثرية لا يزورها الضيوف والزوار إلاَّ لأنها تدفع أجراً كبيراً لمن يزورها على زيارته لها . وبالرغم من أن ضيوف السيدة فيردوران كانوا يتمنون أن تدعوهم تلك النبيلة الثرية . وبالرغم من إنهم كانوا يعرفون ان الناس يتلهفون ويتوقون إلى زيارة تلك النبيلة الثرية وأن قصة دفعها أجراً لمن يزورها قصة ملفقة باطلة ، فإن أمثالهم من المحرومين الذين تستذلهم السيدة فيردوران لآرائها وأقوالها كانوا يستطيعون أن يحملوا نفوسهم على نسيان الحقيقة وإنكارها ، ويستطيعون أن يصدقوا قولها عن تلك النبيلة الثرية . وكان يحلو لهم إدعاء الترفع عن زيارة نبيلة تدفع أجراً لمن يزورها على زيارته كما أوهموا أنفسهم وصدَّقوا ، وهكذا تستطيع النفس ان تقبل المحال الباطل الذي لا يخفى بطلانه ، إذا كان فيه ما يرضي زهوها أو حسدها أو حقدها أو حتى ما يُرْضي إيحاء الموحي الباطل إذا رجت من ذلك الموحي بالباطل عطفاً أو خيراً أو ما يرضي أهواءها وخواطرها السانحة التي تستعز بها .

(٩) لعلَّ من أسباب نسبة المُحَدِّث عيوب نفسه إلى غيره من الناس ، التلذذ بالتحدث عن نفسه بطريقة غير صريحة وهي طريقة تطهره من تلك العيوب في نظر بعض الناس كما يظن ، وتعطيه لذة المعترف اعترافاً غير صريح وغير محسوس وكأنه يجد لذة في مباشرة عيوبه

التي ينسبها إلى الناس من غير أن يؤاخذه الناس على تلك اللذة ومن غير أن يفطنوا إليها . وكل إنسان مشغول مهموم بصفات نفسه وميولها ، فتلفته تلك الصفات إلى مثلها في غيره أو يتوهم انها لفتة، ويقنع نفسه ويخادعها في تلك اللفتات وهو يحسب انه يرى الناس مرآة لنفسه فينسب إليهم ما لا يزينه . وعلاوة على ذلك فإن كل سيئة في نفس المحدِّث كأنها مهنة يعرف أسرارها وكل عيب كأنه حرفة يدرك خفاياها . وكل صاحب مهنة أو حرفة مولع بالتحدث عن حرفته أو مهنته لأنه يعرفها أكثر مما يعرف أي شيء آخر، كما يحلو للطبيب أن يتحدث عن الطب، وللمعلم أن يتحدث عن التعليم، وللمحامي والقاضي أن يتحدثا عن القضاء والقوانين ، وللنجار أن يتحدث عن النجارة ، وللزارع أن يتحدث عن الزراعة . وكذلك صاحب السيئة والعيب، يتحدث عنهما كأنهما مهنة أو حرفة الكلام فيهما غالب على لسانه، ولكنه ينسبهما إلى الناس بقصد التجمل والترفع .

(١٠) بالرغم من شرور الناس وقسوتهم وتحاسدهم ، فان كل نفس بها جانب من الخير والحنان والكرم والرقة وقد تجده غريباً في النفس بين صفات تخالفه كما قد تجد الزهرة النادرة النفيسة غريبة في وادٍ مُوحش قفر مجدب . وإذا منعت الأثرة ومنع حب النفس من ظهور جانب الخير من النفس ، فان تلك الرقة وذلك الحنان والكرم صفات موجودة مستترة فهي موجودة بالرغم من خفائها . وقد تجد الرجل الفظ الغليظ الطبع القاسي إذا قرأ قصة مؤثرة يبكي لما حلَّ بالضعفاء والأبرياء فيها من الآلام والظلم حتى تفيض دموعه وتبلل وجهه وهو قد لا يتورَّع في أعمال الحياة من أن يفعل مثل ذلك الظلم الذي أثار عطفه وأراق دموعه عند ما قرأ القصة . ولكن الانسان إذا قسا أو ظلم سَوَّغ عمله . فانه يعد نفسه دائماً عادلاً مهما كان قاسياً ظالماً ، ويقول ان القسوة قد تكون نوعاً من الرحمة . بمثل هذا القول يسوِّغ المرء إتيان ما يجلب له منفعته أو يرضي نهمة غضبه بالرغم من جانب الرقة والعطف في نفسه .

(١١) كثيراً ما يقول إنسان لآخر يسرني ان أفعل كذا كي أسرك ثم يحسب انه قد أدَّى له خدمة ، أو صنع معه معروفاً ، وما يهم السامع ليس ما يدعي القائل إنه يود عمله ليسره، بل ما يستطيع أن يعمله كي يسره . ولكن القائل يستطيع أن ينسى ذاك وأن ينسى

أنه لم يعمل ما يدعي انه يود أن يعمله كي يسر السامع ويكاد يقنع نفسه انه في الواقع قد صنع معروفاً وأدّى خدمة . والمجاملة في الكلام محمودة ولا شك، ولكن من غير المحمود ان يغالط المجامل القائل نفسه حتى يظن أن المجاملة تقوم مقام الحقيقة وحتى يحسب ان سامعه مدين له بالمعروف الذي يكاد يقنع نفسه أنهُ أدّاه.

(١٢) إذا وصف انسان انساناً آخر أمامك بمدح أو شرٍّ، فإنك قد لا تصدق القائل ومع ذلك تتأثر بقوله المرفوض بالرغم منك أو قد تتأثر كلما رأيت ذلك الانسان الموصوف أو كلما فكرت فيه أو سمعت به أو اتصلت به أي اتصال . ولعلَّ ذلك من طرق الإيحاء ولعلَّ هذا التأثر يكون في الوصف بالشرّ أكثر مما يكون في الوصف بالخير لأن إثرة النفس تجعلها أميل إلى التأثر بالشر إلاَّ إذا كانت لها عند الموصوف حاجة ورأت ان الحصول عليها بأن تتأثر بوصف الواصف له إذا كان خيراً .

(١٣) إن الانسان إذا حدَّثه محدّث مغرم بأن يطابق على نفسه كل حديث بالخير أو الشر إذ أنه يفكر في نفسه حتى ولو كان مُحلّقاً في سماء التفكير النظري العام . وبعض الناس يستطيعون إخفاء هذا التطبيق إذا كان الحديث كريهاً يخفض من قدر أنفسهم ويظهرون أنهم لم يطبقوا الحديث على أنفسهم ولا صلة لهم بموضوعه وبعضهم ترى في عينيه شيئاً من الشك والقلق وسوء الظن خشيةً أن يكون المحدّث يريد بحديثه النظري العام الاشارة إلى شيء في أنفسهم لا يستملح .

(١٤) ليس الإفحام في المجادلة والمحاجة دليلاً دائماً على رجاحة رأي المناظر الذي أفحمك. فقد يُفحِمك المجادل فلا تستطيع الرد والقول، إذا كانت آراؤه لا اتصال لها بنفسك وعقلك أو لا حقيقة لها على الاطلاق . أما المناظر اللبق فهو اذا أدلى بحُجَّة ورأي راجح قد يستطيع أن يجد جانباً من عقلك يألف ذلك الرأي وان خالفته فيستطيع أن يتصل بأفكارك ويلقحها كما تلقح الأشجار ومن أجل ذلك كان « برجوت » اذا ناظرني أستطيع أن أرد عليه القول ولكن رأيه كان يلقح رأيي ويتداخل في نفسي وكانت طريقته في المناظرة أن يرد على قولي بما يخالف رأيي وكأنه لا يخالفه إلاَّ في بعض الأمور دون بعضها فكان يصل رأيه برأيي مظهراً موضع الاتفاق، حتى ولو كان صغيراً، وموضع الاختلاف وأسباب الاختلاف، فتكون

مقبولة أكثر مما تكون لو فصل بين رأيي ورأيه فصلاً تامّـا .

(١٥) إن سرور المرء إذا فهمه وقدَرَهُ رجل ذو عقل كبير راجح ، أقل من غيظه أو حزنه اذا لم تفهمه ولم تقدره امرأة، كأنها لا عقل لها ولا ذكاء، لغباوتها ، إذا كان يحبها . فالانسان يغتبط اذا فهمه من يحبه أكثر من اغتباطه إذا فهمه من لا يحبه .

(١٦) ان اتفاق الآراء والنظريات لا يؤدي إلى تداني المثقفين قدر ما يؤدي إلى تدانيهم ائتلاف الأرواح والأذواق والأمزجة . وقد يُظْهر المرء امتعاضاً وغيظاً إذا وافقه على رأي يستمسك به إنسان يعتقد انه فاسد الذوق جامد الروح ثقيل الظل حتى ليكاد من امتعاضه وغيظه أن يتهم الرأي الذي شاكله فيـه ووافقه عليه من يستثقل من الناس ، إلاّ إذا كان صاحب الرأي سياسيّـا فيخفي غير ما يظهر، لأن همّ السياسي كسب الأنصار وإن كان يستثقلهم، أو إذا كان صاحب الرأي فيه ذلك الشعور بالنقص الذي يدفعه إلى العطف على كل من يردد رأيه ويوافقه عليه، وان كان يخالف ذوقه ومزاجه . ومع ذلك فإن الرغبة في احتكار الرأي لنفسه ولمن وافق مزاجه وذوقه نوع من الأثرة وحب الذات .

(١٧) كثيراً ما يدّعي المرء عاطفة أو يتصنع شعوراً أو يهيء فكرة باطلة وهو يعرف بطلان كل ذلك. فاذا لجّ به هذا الادعاء وألحّ عليه التصنع انقلبت هذه الأمور في نفسه حقائق ومثلُـهُ مثلُ الانسان إذا أوحى إلى نفسه إنه مريض فلا يزال به الإيحاء النفسي حتى يكون مريضاً ممتَـلاًّ . وكذلك اذا ادَّعى على انسان دعوى تستوجب الملامة والمؤاخذة وهو يعرف إنها دعوى باطلة، فإنه لايلبث أن يصير ادعاؤه حقيقة في نفسه، إذا لم يُراجَع مراجعة تؤدي إلى التفاهم .

(١٨) مما كنت أتعجب له أن «بلوش» كان كثيراً ما يذم من لا يستحق بعض ذمه أو كله حبّـا للذم لا لسبب آخر . كما انه كان يمدح من لا يستحق كل مدحه أو بعضه وقد يختلف تفسير هذه الظاهرة منه فلعله كان يتخذ من مدح الممدوح وسيلة يخدع بها السامع كي يقبل ذم من يذمه ؛ إذ أن مدحه الناس قد يُبْعد عن الأذهان أنه حقود سيء الرأي في الناس، فاذا ذمّ بعضهم تلمسوا له عذراً أو لعل التفسير إنه كان يرى في مدح الممدوح تكفيراً عن ذم المذموم، أو لعلّ الدافعين كانا يمتزجان في نفسه أو قد يكون المدح والذم استجابة منه

للحالة الغالبة على نفسه من راحة أو تعب أو حزن أو سرور أو غيظ عام يحيله على انسان معين أو ارتياح عام يشمل به نفس انسان آخر فيصير مدحاً وهذه الصفات كلها تشاهد في الناس .

(١٩) كان «بلوش» يُقسِم ويحلف لا أملاً في اقناع الناس بصدق الكذب الذي كان ينمقه بالقسم، فما أظن انه كان يأمل ذلك، وإنما كان يَقسِم بدافع أشبه بالهستيريا وانسياقاً مع الشعور المتغلب على نفسه وجسمه . وذلك الدافع إلى الحلف والقسم كان يمنحه لذة جديدة في تزيين الكذب بالحلف وتجميله بالقسم. وكان وهو يحلف يُخيِّل لمن يراه أنه يفيض حناناً ورقة ويذوب لطافة وان كان موضوع الحلف يخالف كل ذلك وكأنما كان ينتشي من عذوبة الاحساس الغالب عليه الذي دفعه إلى الحلف كذباً — وبعضهم إذا حلف كذباً يخالف عذوبة حلف «بلوش» بالكذب فان بعض الناس من احساسه انه كاذب ومن غيظه وخوفه أن يعرف السامع ذلك يحلف كذباً وكأنه يكاد يلتهم سامعه ويقسم كذباً وكأنه يكاد يبتلع ذلك السامع كأنه بالعنف يريد أن يخيفه فيصدقه .

(٢٠) إن بعض الناس قد يريدون أن يسمعوا من جليسهم قولاً يسرهم ويرضيهم ولكنهم مع ذلك يريدون أن يوهموا أنفسهم إنهم لم يحثّوه على قوله ولم يغروه به ولم يلحوا عليه في طلبه ولم يلجُّوا معه في الحديث حتى يذكر القول الذي يريدون أن يسمعوه منه. وهكذا فعل دوق «جرمانتس» مع «سوان» عند ما أراد ان يسمع منه ان صورة جدّه من رسم كبار الرسامين المصورين فجعل يقول له لا تملّقني . إذكر الحقيقة ما رأيك في الصورة ؟ فلما ضاق «سوان» ذرعاً قال : إنها كالنكتة الباردة والفكاهة الغثة . فلم يستطع الدوق أن يخفي اشارة تدل على الغيظ لأنه لم يظفر بالقول الذي كان يُحِبُّ أن يسمعه، بل ظفر بعكس ذلك. والحقيقة هي ان هذا الالحاح كثيراً ما يشاهد في الناس .

(٢١) قد تكون خشيتنا فقد ما نود أن نملك ولم نملكه بعد، ولكننا نأمل ذلك في المستقبل، أعظم من خشيتنا فقد ما قد ملكناه وتمتعنا به . ولعلّ هذا من أهم أسباب غيظ المرء واضطغانه إذا نال أحد الناس شيئاً لا يملكه المضطغن وقد لا يملكه ولكنه قد يوهم نفسه انه ربما حاز بعضه أو كله في المستقبل فيخيل له الوهم كأن الذي فاز به قد سلب منه

أمراً واختلس منه شيئاً يملكه وربما كان من البعيد أو المحال ان يملكه حتى في المستقبل البعيد ، فاضطغانه وغيظه مؤسس على وهم الاماني الباطلة التي تجعل ما لا يمكن ان يملكه كأنه قد ملكه وسلبه منه الفائز به .

(٢٢) عند ما نتكلم ونسمع كلامنا ، كثيراً ما ننسى ان وقع كلامنا في آذاننا وعقولنا ونفوسنا قد يختلف اختلافاً كبيراً عن وقع كلامنا في آذان غيرنا وفي عقول السامعين ونفوسهم ، فالأثر الذي نظنه لكلامنا في آذان غيرنا يكون في هذه الحالات أثر كلامنا في آذاننا وفي عقولنا ونفوسنا، وننسى ان السامع قد لا يصله كلامنا إلاّ من وراء حجاب نفسي وعقلي أو جثماني كما يسمع المرء كلام من يحدثه من وراء مسقط مائي لجب صاخب ، فيصله مختلف المخرج، وقد يختلف معناه في ذهنه أو يفهم بعضه أو كله على غير ما أراد المتكلم . وهذه حقيقة ينبغي أن لا يغفل عنها المتكلمون ولا سيما من كان معلماً منهم .

(٢٣) إننا اذا قابلنا انساناً يحدثنا واتجه عقلنا لسماع كلامه ولفهمه ، لا نشعر بسرور كالسرور الذي نشعر به اذا اتجه عقلنا الى أنفسنا . هذا إلاّ اذا كان اتجاه عقلنا لسماع المحدث لا يشغلنا عن التفكير في نفوسنا أو كان قصير الأمد أو كان داعياً الى التفكير في أنفسنا وفيما يهمنا

(٢٤) بعض المثقفين من ذوي الأدب والحياء يخجلون ويتحاشون أن يعرف جليسهم وعشيرهم أنهم قد اطلعوا منه أو ان الناس قد اطلعوا منه على زلة بدرت منه أو نقص ظهر فيه . فاذا بدرت من الجليس بادرة سقطة ، استحيوا له خشية ان يتأثر بظهور تلك السقطة وهم قد لا يهولون من أمر هذه الزلة ، وقد لا يعيرونها اهتماماً ولكنهم يخشون أن يهتم ويتأثر صاحبها لظهورها منه ويستحيون له ان يجرح ظهورها إحساسه ، وهذا منهم من فرط لطافة الحسّ التي قد تخشى ان يتألم الجليس اذا علم أن الناس قد فطنوا الى زلته أو سقطته — ومن العجيب ان استحياء لطافة الحسّ هذه قد يُفَطِّن الجليس صاحب الاحساس والشك والفطنة إلى أن زلته قد كُشِفَ أمرها، وقد يحقد على من استحيي له، ويعد استحياءه نفوراً من زلته ويغيظه اطلاع صاحب الحياء على سقطته ، وقد يكون هذا التحاشي والاستحياء عناء لا طائل تحته إذا كان صاحب الزلة ممن لا يهتم باطلاع الناس عليها ، ولكنه على أي حال يدل على أن صاحب الاستحياء ليس ممن قلت ثقافة نفسه، فيتتبع سقطات جليسه كي يظهرها ويكيده بها أو يسخر منه بسببها . (البحث بقية) ع . ش

العشائر العربية(١)

نظام العشائر معروف في الشرق الأدنى من آجال بعيدة . وقد غدت طرق معاشها الخاصة — التي تبلورت على مرّ القرون لتطابق البيئة التي تعيش فيها — جزءًا ضروريًا حيويًا من الثقافة العامة في تلك الرُّقعة . ووحدة القبيلة — وهي التي ما فتئت تجاور القرى الزراعية والمدن التجارية — نهضت عن وجدانٍ أو عن غير وجدان في علاقاتها مع القرى والمدن بنصيب لا يقلّ في شأنه من ناحية الثقافة المحلية عن النصيب الذي اضطلعت به المدن والقرى .

والعشائر العربية في الشرق الأدنى تؤلف في الأوان الحالي شطراً كبيراً من مجموع السكان ، وهي على أنواعٍ شتى من مدارك الرقي ، فمنها القبائل الرُّحَّل ، ومنها العشائر التي استقرّت استقراراً تامًّا وبات لها اقتصادها الزراعي .

وهذا الشطر من السكان أخذ في السنين الأخيرة ـ على غير المألوف في التاريخ المديد ـ يسترعي مزيداً من الاهتمام القومي والوعي الوطني ، ومردّ ذلك الى اليقظة القومية التي شاعت في العالم العربي . فقد حقق معظم البلدان العربية استقلاله فعلاً أو أضحى على قيد خطوات منه . وزعماء العرب يحشدون الموارد القومية ، وحكوماتهم تواجه المستقبل بمشروعات بعيدة الأجل لتحسين أحوالها وتعمير مرافقها . ووجهت عناية تذكر إلى العشائر لأنها تعد عاملاً ذا شأن في مثل هذا التنظيم القومي ، ولأنه أصبح من معتقدات الزعماء

---

(١) هذا بحث طلي نشره باللغة الانجليزية الاستاذ عفيف طنوس الخبير الاقليمي في شؤون الشرق الادنى في وزارة الزراعة الاميركية في مجلة جديدة يصدرها في وشنطن معهد شؤون الشرق الاوسط عنوانها The Middle East Journal وكان الاستاذ طنوس عضواً في البعثة الزراعية الاميركية التي بحثت أحوال العالم العربي في ربيع عام ١٩٤٦ وصيفه

— سواءً في داخل الدوائر الحكومية العربية أو في خارجها — ان فكرة « الدولة » في العالم العربي لا يمكن تحقيقها على أساسٍ مستقرّ دائم إلاّ اذا أصبح الشطر العشائري جزءاً متكاملاً ومندمجاً اندماجاً تامّاً مع سائر الأمة يتقدّم معها في طريق الازدهار والرقي .

ومما عزز الرغبة القومية الشديدة في إدماج العشائر بسائر أجزاء الأمة ، أن هناك خشية من حدوث تدخل سياسي خارجي . وقد أدرك الزعماء القوميون في بعض البلدان العربية — في صراعهم الطويل المرير للظفر بالاستقلال — أنه ما لم تكن العشائر جزءاً لا يتجزأ ومجتمعاً متصلاً اتصالاً وثيقاً بالتنظيم القومي المركزي ، فانها كثيراً ما تجنح الى النهوض بدور « الأقليات » وهذه ثغرة ينفذ منها الضغط السياسي والنفوذ الخارجي

وثمة سبب آخر يدعو الى الاهتمام القومي الحالي بشؤون العشائر وهو أن هناك اعتقاداً بأن هذه الطائفه تعدّ خطراً دائماً يهدّد الأمن العام الداخلي . ويقال في هذا الصدد إن منازعات دموية مدمرة قد تنشب بين حين وحين بين العشائر وإن رجال العشائر في مباشرتهم لحقوق الرعي المخولة لهم كثيراً ما يعتدون على الأراضي المخصصة للزراعة فينشأ عن ذلك سفك دم وتدمير ممتلكات .

ويحاجّون بأنه ما دام نظام البداوة باقياً مع ما له من طراز فريد في التنظيم الاجتماعي الاقتصادي، ومع ما لزعماء العشائر من اعتياد على القبض بأيديهم على ناصية القانون ، فمن المتعذر على الحكومة المركزية أن تصون الأمن العام صوناً كاملاً .

وهناك علاوة على ذلك اعتبارات ادارية تجعل الحكومات المركزية على وجدان تام بأن العشائر مورد مشاغبات وقلاقل . فعند فرض الضرائب وجبايتها ، وعند إحصاء السكان وعند تطبيق البرامج التربوية والصحية ، وعند تنفيذ المشروعات الزراعية ، وعند تجنيد الشبان للتدريب العسكري ، كثيراً ما تتبين السلطات أن أعمالها تحبط في ناحية أو أخرى بفعل التنظيم الفطري عند العشائر . فالمشروعات والسياسات والبرامج والخطط التي توضع على نطاق قومي كثيراً ما يكره المسؤولون إما على تعديلها أو على التخلي عنها في المناطق التي تحتلها العشائر . ومن الحقائق المألوفة أنه لا يمكن اجراء احصاء دقيق للبدو الرحل أو لماشيتهم لأنهم — لأسباب شتى — يأبون أن يمتثلوا عن طواعية للاحصاء سواء إحصاء أفرادهم

أو أنعامهم. وعددهم يزيد أو ينقص تبعاً للغرض الذي يجري الاحصاء له من جباية ضرائب أو تجنيد شبان أو توزيع جرايات سكر . أضف الى ذلك أن على السلطات أن تسير على نوعين من القوانين القضائية : هما قوانين البلاد وقوانين العشائر . والصدام بين هذه وتلك صدام يكاد يكون مستمراً .

وفي طاقة المرء ، بناء على هذه الملاحظات أن يقول إن في العالم العربي اهتماماً شائعاً بشؤون العشائر وقلقاً منها ، وان هذا الاهتمام يتخذ من الناحية العامة شكلاً سلبياً محصله أن القبائل الرحل تعد مشكلة قومية ، ومستودع قلاقل ، ووحدة متخلفة في مضمار الحضارة تعترض طريق الرقي القومي . ومن الناحية الأخرى ، والى جانب هذا الاتجاه السلبي هناك اتجاه قوي ايجابي من جانب الزعماء والمفكرين يدل على حسن استيعاب المشكلة . فهؤلاء يدركون مقام نظام العشائر في الكيان القومي ، وهم جادون في البحث عن حلول ايجابية لشتى المشكلات التي ينطوي عليها هذا النظام . بيد أنه باستثناء هؤلاء لا يتجاوز اتجاه التفكير العام الاعتقاد بأن القبائل الرحل مشكلة قومية ، وان الحل الوحيد الشامل لها هو « استقرار القبيلة » وهذه عبارة جرت مجرى الأمثال والأقوال الشائعة .

ويتبين من التحري أن هناك إجماعاً على أن استقرار القبيلة معناه تحويل البدو الرحل الذين يعيشون على نتاج ماشيتهم وأغنامهم الى زرّاع مستقرين للتربة . وهناك اتفاق عام كذلك على أن القبيلة ينبغي أن تمدّ بالأرض التي تستقر فيها . وهم يسلمون بأنه متى اتخذ مثل هذا الاجراء ، أمكن حل مشكلة القبيلة . وقد سبق بعض الحكومات العربية البعض الآخر في التفكير في التفصيلات المختلفة للحل المقترح وفي الاستعداد لتطبيقه ، فأنشأ ادارات خاصة تعالج حالة القبائل ، وعُين بعض الاداريين والموظفين الخبيرين بشؤون العشائر ليبذلوا قصارى جهدهم في انجاز مهمتهم .

ولكن المرء يمكنه أن يدرك أن هذه ليست سوى خطوة أولى وان الحاجة ماسة الى الدنوّ من المشكلة بدرسها درساً وافياً مفصلاً ابتغاء حلها حلاً نهائياً . وفي ما يلي محاولة لعرض بعض الآراء بشأن تنظيم العشائر ومقامها ، وتقديم اقتراحات بشأن اندماجها في الكيان العربي .

وأول ما يؤكده الباحث أن القبيلة العربيـة طائفة موغلة في القدم ذات تهذيب خاص . وتاريخها موصول الحلقـات يمتدّ إدباراً بضعة آلاف من الأعوام إلى العصور الأولى للرقي الانساني . وهـذا التاريخ الطويل — وقد انطوى على العيش طبقاً لنظام عجيب من نظام البيئة الطبيعية — أفضى إلى تطور وحدةٍ ثقافية واضحة المعالم لهـا مظاهرها المتميزة في نواحي الحياة المتباينة . وهـذه المظاهر تعيّن للفرد وللجماعة الطرائق التقليـدية لمباشرة الأعمال في نطاق النشاط الاقتصادي والديني والعائلي ، وفي الترويح عن النفس ، وفي الحـكم وفي سواها من مجالي العلاقات الانسانية . ونحن — بتعبير آخر — نعالج ضرباً من ضروب التنظيم الانساني له كيـانه الكامل ودعائمه المتأصلة . وإذا أردنا أن نفهم أحوالها ونقـدّر قيمتها وجب أن نعالجها مستعينين على ذلك بوضعها التاريخي .

وينبغي أن يؤكد ثانياً أن النظام العشائري أسدى ، وفي طاقتـه أن يسدي ، خدمات أساسية للـكيان العربي القومي . ولعلّ أول مساهمة كبيرة له في هـذا الصدد مساهمة ذات صفة بيولوجية مجردة ، لأن العشيرة وحدة بيولوجيـة قويه مقتدرة . وقد استطاعت في عصورٍ لا يحصى عددها أن تغالب بنجاح عوامل طبيعية متضادة في بيئة من أعسر البيئات التي واجهت النوع الانساني في تاريخه ، وهي بيئة الصحراء ، حيث تسدد الشمس أشعتها بغير مرحمة فتضرب بها كل نوعٍ من أنواع الحياة ، وحيث يشحّ الماء ويقلّ الزرع ويكره كل رجل وكل حيوانٍ على إستخدام كل ذرّة من الطاقة والحيوية في كفاحه في سبيل البقاء . وقد استطاع الانسان متعاوناً مع قطيع خرافه وقافلة إبله وجانحاً الى الهجرة الدائمة بحثاً عن الماء والمرعى ، أن يعيش . وفي وسع المرء أن يشهد هذا الصراع والـكفاح في سبيل العيش ماثلاً اليـوم ، وحسبه أن ينظم رحلةً عبر هضبة نجد في المملـكة العربية السعودية أو في قفار سوريا أو العراق أو شرق الاردن لينفذ ببصره إلى أوجه التطور الانساني في هـذه الرقعة . وفي طاقته كذلك أن يتبين أدلة كافية على أن التطور انطوى على بقاء الأصلح والأقوى والأشدّ شكيمة .

وفي هذا الصراع ، وهو صراع في سبيل البقاء ، لم تكتف القبائل بأن تبقي على حيـاة أفرادها ، بل أصابت كذلك نجاحاً في الاكثار من عـدد أفرادها بنسبة كبـيرة . ومن

الحقائق التاريخية الشائعة أنه باطراد عدد أفراد هـذا النوع البيولوجي القوي المنيع ، تحسّن إلى حدّ بعيد نوع السكان الزراعيين القرويين في البلدان العربية . ومن الأمور الجلية في الأوان الحالي بوجهٍ خاص ، انتقال سكانٍ أشدّاء أصحاء نسبيًّا من حياة البداوة والترحيل إلى المناطق الزراعية المأهولة ثم المناطق العامرة . ففي سوريا والعراق والجزيرة العربية وسواها من البلدان العربية يستطيع المرء أن يرى معرضاً من مراحل الانتقال المتباينة تبدأ من البداوة الفطرية في ناحيةٍ ، وتتدرّج إلى القرى الآهلة بالسكان من ناحية أخرى . وما فتئت القبيلة تسدي خدماتها البيولوجية للعالم العربي .

فالسؤال إذن هو هل تستطيع أي دولة كانت من الدول ذات الشأن أن تتخذ سياسة من شأنها أن تفضي عن وعي أو عن غير وعيٍ إلى تصفية هـذا « المورد » البيولوجي القومي الكبير ؟

والقبيلة تنهض ، عدا الدور البيولوجي ، بدور اقتصادي كبير الشأن . فمساهمتها في الاقتصاد العام للبلدان كانت أمراً مسلماً به حتى انه كثيراً ما يُغفَل ولا يعني به عنايةً جدية عند وضع مشروعات التقدّم القومي . ومن التحليل والتحرّي يتضح أن اقتصاد العشيرة هو بغير شك نظام صالح لاستغلال موارد الصحراء الشحيحة . فهي تستخدم بنجاح ولمصلحة الأمة بأسرها ، القليل من الحشائش التي تنمو في مناطق شاسعة متباعدة في الصحراء ، ومن شأن هـذا الجهد أن يساهم مساهمة كبيرة في التنظيم الاقتصادي القومي . حتى لقد غدت الماشية في كل من الدول المعنية مورداً من أكبر مواردها سواءً لاستهلاكها أو لأصدارها . وهناك عدد كبير من ملايين الخراف والماعز وعدد كبير من الماشية والابل يسدّ حاجات الشعب من الاحم والمنتجات اللبنية وينتج مزيداً من الصوف والشعر والجلد لاصدارها . والواقع أنّ القبائل البدوية الرحّل أو المستقرّة استقراراً جزئيًّا في الصحاري أو في المراعي هي التي تعني بتربية هـذا القدر المطرد من الانتاج الحيواني الكبير الشأن ، وهي حين تفعل ذلك تعتمد اعتماداً يكادُ يكون كاملاً على الحشائش والنباتات التي تتبرع لهم بها القفار والبيد .

وهذا مورد دائم مرموق من موارد الدخل القومي ، ومن المحتمل أن لا يكون له مثيل .

وينبغي على الأقلّ أن لا يُعترض طريق هذا الطراز من الاقتصاد العشائري ، أو يُتدخل في أمره بكيفيةٍ ما حتى يتسنى تبيان مصدر اقتصادي ملائم يخلفه . وقد يُحاجّ المرء قائلاً إنه بترقية شؤون الري يصبح الاستقرار الزراعي مهنة أربح وأجدى من رعاية الأنعام والضرب في البيداء . وقد يكون هذا القول صحيحاً ، ولكن صوابه لا يتجلى إلاّ بعد ما يتحقق تنفيذ مشروعات الري الكبرى على مدى واسع ، ويبدو مؤكداً أن نجد دائماً مناطق واسعة من الأرض الشبيهة بالجدبة لا يمكن لماء الري أن يبلغها ، ولا يتسنى نجاح الزراعة الجافة فيها . ففي تلك المناطق يصادف اقتصاد الرعي مكاناً مستطاباً للازدهار ويسدي أيادي اقتصادية بيضاً .

ومن ناحية ثالثة أسدت جماعات العشائر خدمات رئيسية لثقافة العالم العربي الحالية . وبالثقافة يعنى أسلوب الحياة كما ترتضيه وتنهجه طائفة معينة أو مجتمع يختلف اختلافاً بيناً عن طرق المعاش المألوفة بين الجماعات والمجتمعات الأخرى . وتتألف كل ثقافة من منحيين كبيرين هما : المنحى المادي ، والمنحى غير المادي . ويتألف الأول من مجموعة من الآلات والأدوات والأشياء المادية الأخرى التي تستخدمها الجماعة في مطابقة نفسها للبيئة الطبيعية وفي استغلال هذه البيئة .

ويتألف المنحى الثاني من اتجاه سلوكي معين ينظم للجماعة تصريفها للامور مستعينة على ذلك بالأشياء المادية والأساليب المختلفة من أساليب الاتصال الماثلة بين أعضائها وبينها وبين الجماعات الثقافية الأخرى .

والمنحيان على اتصال وتشابكٍ مستمرين . ففي حالة الوحدة البسيطة المتكاملة تكاملاً تامًّا — كمجتمع العشيرة مثلاً — يؤلف المنحيان شطراً لا ينفصلُ عن المجتمع بأسره . وبمعنى آخر نقول ان الثقافة تراث يتميز بأنه انساني ، ينشأ حيثما تتصل الكائنات البشرية على مدى الزمان ، وبوساطته يستطيع المرء أن يحقق مواءمة ناجمة بينه وبين أترابه من الأناسي والبيئة الطبيعية التي تحيط به .

والثقافة ، بعد ما تعرفناها وتفهمنا كنهها ، لا تعد مجال ملكاً خاصاً للشطر المتحضر أو المثقف من المجتمع . والمجتمع العشائري هو من ناحية جدارته الخاصة ومن ناحية ما

يحققه بنفسه – كما سلف تبيانه – مالك لتراث ثقافي ، شأنه في هذا شأن الطوائف القروية أو المتحضرة في العالم العربي . والناحية المادية من هذا التراث هي في الواقع يسيرة جداً لا تتجاوز بعض أدوات وآلات وأشياء تستخدم لتلبية الحاجة الانسانية الأولية الى الطعام والمأوى والدفاع عن النفس . ومن ناحية أخرى نرى أن الجانب غير المادي متقدم تقدماً عالياً ، ويتألف من وسائل واضحة المعالم للسلوك والتصرف ، وهذه الوسائل تشمل ألواناً شتى من العلاقات تتصل بالدين والأسرة والحكومة والنشاط الاقتصادي والصراع والتعاون والتنظيم العام المجتمع .

وإنه لفي هذه الناحية من العلاقات الانسانية غير المادية للثقافة العشائرية ، حيث نجد عناصر أضافت يداً بيضاء الى معنى الثقافة العربية ولونها . وتنطوي هذه على قيم اجتماعية أساسية ، أهمها استقلال الفرد وشهامته ، واحترام الزعامة وتوقير الشيخوخة ، والقرى والكرم ، واحترام الوعد ، ومراعاة حقوق الفرد ، والتعاون المشترك ، والاهتمام بالناحية الشخصية في العلاقات الانسانية ، والوجدان وجداناً اجتماعياً والولاء لهذا المجتمع .

وأمكن بفضل زيادة عدد سكان العشائر وباتصالهم الدائم ببقية العالم العربي أن تصبح القيم التي أشرنا اليها وسواها من القيم الثقافية جزءاً من أسلوب المعيشة عند العرب . والواقع أن كثيراً من هذه القيم يدعّم هذه المعيشة ويسبغ عليها لونها ويوجهها الى وجهة الرقي والارتقاء .

ولا نقصد القول إن كيفية معيشة العشيرة هي المصدر الوحيد أو حتى المصدر الكبير للتقدم الثقافي في بلدان الشرق الأدنى المختلفة . فهناك بغير ريب أسس ثقافية أخرى قد تفوق في عدد من هذه البلدان الأسس الثقافية العشائرية . أضف إلى ذلك انه ليست هناك نية ما في أن نوحي للقارىء بأننا نقصد أن نحكم حكماً أخلاقياً فنقول انّ العناصر الثقافية للعشائر « جيدة » أو « رديئة » فليس همّنا سوى أن نقرر الواقع .

وفي ضوء هذه الاعتبارات يبدو جلياً أن المجتمع العشائري لا يمكن أن يعدّ أقلية ثقافية أو مجتمعاً فطرياً دخيلاً على الثقافة المحلية . فالواقع انه يعدّ شطراً رئيسياً حيوياً من السكان ، وان نشاطه الاقتصادي يعدّ عاملاً كبير الشأن في الاقتصاد القومي ، وان طرق معاشها هي جزء مكمل للثقافة العامة في العالم العربي .

(ترجمها عن الانجليزية)

وديع فلسطين

طنين الآذان

أسبابه وعلاجه

السامعة ومجلسها الأذن ، عضو دقيق الصنع معقد التركيب ، يثير في إتقانه وإحكامه الدهشة والعجب . فهو الذي يجعلنا نشعر بتموجات الأجسام المصوتة واهتزازاتها ، فنعرف إذ ذاك الأصوات ونقدّر شدتها ونحكم على نغماتها . وهو الذي يحافظ على موازنة الإنسان وتقدير وضعية الجسم في الفضاء بوساطة عمل القنوات الهلالية الموجودة في الأذن الداخلية — إذا ما أصيب أحدهم بالدوار مثلاً — صحيح إنه يمكن للمرء أن يقدّر وضعية بدنه ويحافظ على موازنته حتى ولو كان في مكان مظلم لا يرى فيه أقسام بدنه كما لو كان في النور ، وذلك بفضل الاحساسات الحسية والعضلية ، إنما وضعيته وموازنته المشار إليهما لا تكونا فعلاً تامتين إلا بوجود قنوات الأذن الهلالية التي تحيط بتلك الحاسة المسماة « حاسة الموازنة » . فاذا ما قطعت قناة من تلك القنوات دار المصاب وتدحرج نظراً لاتجاه تلك القناة المقطوعة واختلت موازنته .

ومعلوم أن الأذن تتألف من ثلاثة أقسام وهي الظاهرة والمتوسطة والباطنة ، والسمع لا يتم إلاّ بواسطة القسم الباطني أو الداخلي ، أما القسمان الظاهري والمتوسط فيقومان بتوصيل اهتزازات الأصوات التي تقع على غشاء الطبلة الى القسم الداخلي الحساس ، فتتأثر حينئذٍ فروع العصب السمعي وتوصل الأصوات الى المراكز السمعية في الدماغ فيحكم بها .

وإننا لا نقصد ان نتطرّق هنا إلى ذكر العوارض والأمراض التي تطرأ على الأذن وتحول دون السمع لأن ذلك يقودنا الى شرح طويل جداً لا يتسع هذا المجال لذكره ، خصوصاً ان معرفة أمراض الأذن وكيفية علاجها تتطلب ولا ريب الماماً تاماً بأقسام هذه الأذن التشريحية ، لكننا نكتفي الآن بذكر عارض خاص الى عدد كثير من الأمراض ونعني به « طنين الآذان » المصاب به كثيرون ، والذي هو موضوع بحثنا اليوم فانه غالباً ما ينذر بحدوث ثقل السمع عند المصاب .

ولا ينكر ان النتائج الباهرة التي حققها الطب الحديث في مداواة الأمراض الأذنية

جاءت صورة صحيحة للتقدم العلمي في أيامنا هذه — ما عدا الصمم الذي هو نتيجة ضمور العصب السمعي الذي لم يتوصل الطب بعدُ إلاَّ إلى شفاء بعض حالات منه — ، ومع ذلك فقد أنقذ العلم اليوم حياة الألوف من المرضى في خطر دائم في حالة الاصابة بالتهابات الأذن الوسطى ومضاعفاتها ، وهذا عائد ولا ريب الى معرفة تركيب أعضاء السامعة معرفة تامَّة أكثر من ذي قبل . نبدأ هنا بموضوع بحثنا اليوم وهو :

﴿ طنين الآذان ﴾

هو أحد الاضطرابات الأكثر حدوثاً وانتشاراً بين أعضاء السمع الأخرى ، وناتج عن تهييج غير طبيعي في العصب السمعي . فقد يكون حدوثه وقتيًّا ، عابراً سريع الزوال ، أو بالعكس مستعصياً . وتارة يشاهد في أمراض الأذن الخطيرة ، وأخرى وهي الغالبة جدًّا ، في العوارض والحالات المرضية السليمة العاقبة . وفي كثير من الأحيان لا نشاهد لدى فحص الأذن أي أذًى أو عارض يُذكر في الجهاز السمعي حتى عند الذين يتكرَّر غالباً حدوث طنين الآذان عندهم ويقلقون لأجله !

أما من حيث سمع الأصوات عند المصاب بطنين الآذان وكيفية شعوره بها فيختلف ذلك اختلافاً عظيماً . ففي بعض الأحيان يشعر المصاب بأصوات شبيهة بدندنة الذبابة أو الحشرة على اختلاف نغماتها وشدتها . وفي أحيان أخرى تكون كالصفير الذي يُسمع عادة عند انفلات أنبوب من أنابيب الغاز ، أو كنافورة الماء ، أو أيضاً كانفلات مجرى من أنابيب البخار . وفي بعض المرّات أيضاً يكون طنين الآذان مماثلاً لجيشان الماء وغليانه ، او الى الخرير أو الهدير ، أو أيضاً لأصوات الأجراس والأنغام الموسيقية . وفي هاتين الحالتين الأخيرتين يكون السبب في غالب الأحيان وجود خلل أو اضطراب في (التيه) Labyrinthe بالأذن الداخلية . وأخيراً يشكو المصاب لنا أحياناً أنه يشعر بضربات شبيهة بضربات المطرقة ، أو بنوع من النَّفخ المنظَّم ناشىء من سريان الدَّم في شرايين الأذن ، ويحدث ذلك عادةً في بعض حالات الأنيميا ، والاحتقانات ومختلف حالات التهيجات العصبية الزائدة . وقد تكون هذه التهيجات شديدة أحياناً لدرجة أنها تسبب الأرق عند المصاب ، فيتعذّر عليه النوم ، ويكون قلقاً مضطرباً متضايقاً وموسوساً بنغم شرايينه ! • وفي بعض الحالات يكون الطنين على هيئة ضجيج أو دوي نخَّأي ذو صوت جلي جاف ، وأسباب هذه الحالة حدوث انسداد نخَّأي في بوق أوستاكيوس ، أو قعقعة طبلة الأذن ، أو أيضاً من حدوث طقطقة العضلات الصغيرة لعظيمات الركاب والمطرقة في الأذن الوسطى

﴿ أسبابه ﴾ هذه الأسباب كثيرة متنوعة وجميعها تساعد على إحداث هذه العلة عند المصاب . ويمكن حصر الأسباب المذكورة في نقطتين رئيسيتين ، أولها وجود علة أو أذىً في الأذن مهما كانت درجتها خفيفة ، ثانياً من تأثير حالة الشخص العمومية . وتوصلاً لمعرفة السبب الحقيقي لهذا الاضطراب لا بدّ من إجراء فحص دقيق جداً على المصاب لمعرفة مكان العلة في الأذن ، والسبب العمومي أو الموضعي الذي أدّى الى حدوثها . فليس من النادر أن يصحب طنين الآذان بعض الحالات العامة كأمراض القلب مثلاً ، أو أمراض الكلى والمعدة ، أو تصلب الشرايين ، أو احتقان الدماغ أو حدوث نزف فيه أو حالات الانيميا التي تسبب فرط الحساسية Hyperesthésie في التيه الذي جاء ذكره أعلاه ، أو مختلف الاحتقانات في عروق الجسد . وهكذا قل عن الالتهابات ، وهذه تُعدّ أكثر حدوثاً بين الأسباب ، فنذكر منها مثلاً التهاب صندوق الطبلة والالتهابات الأخرى الحادّة والمزمنة في الأذن الداخلية . ومثلها الانصبابات Efanchements والوزم والسليلة Polyes والتهاب اللوزتين والتهاب البلعوم وتسوّس الأسنان وسيلان الأذن وانثقاب الطبلة : فهذه كلها تساعد بدورها على احداث طنين الآذان .

وهنالك أيضاً طنين آذان يحدث للمصاب بطريق منعكس ، ومنشأه في الغالب وجود حالات مرضية في المعدة أو في الرحم ، وفي هذه الحالة يقتضي معالجة هذه الأعضاء بكل انتباه وملاحظة حالة الأنيميا والنوراستنيا عند المصاب .

ولا ننسى أخيراً ما للتأثيرات العصبية والحرَض (فساد التغذية) والتسممات من الدخل العظيم في إحداثه . وهكذا قل عن تأثير بعض الأدوية مثل سلفات الكينين وساليسيلات الصوديوم الخ — إنما تأثيرهذه وقتي ولا يؤبه به لأنه ينقطع بتوقيف استعمال هذه الأدوية . وكثيراً ما يكون السبب أيضاً تجمع أف الأذن (المادّة الشمعية فيها) فيزول بإزالته بالحقن بالماء الفاتر

﴿ علاجه ﴾ قبل أن نبحث عن الأمراض التي تسبب طنين الآذان يقتضي النظر أولاً فيما إذا كان يوجد جسم غريب في الأذن ، أو مادّة شمعية ، فاذا لم يكن شيء موجوداً من هذا علينا البحث حينئذٍ عن السبب العام للطنين والعمل على ازالته .

ويمكننا أن نقسم هنا علاج طنين الآذان الى قسمين ، علاج عمومي وعلاج موضعي .

(أولاً) — علاج عمومي : على المريض أن يعيش على أتم ما يكون في القواعد الصحية ، فتكون معيشته مريحة منتظمة ، ويمارس الرياضة اليومية الخفيفة في الهواء الطلق ،

ويتجنب الأشغال المتعبة والأمور المهيجة ، وتعاطي الشاي والقهوة والتبغ والكحول ، ولا يحصر خصوصاً فكرهُ وانتباهه في طنين الآذان المصاب به

ويُعطى المصاب كمسكّن عمومي لهذا الطنين ولفرط الدوي الذي يشعر به : الانتيبرين أو الهيبنال أو الكلورال مضافة الى البرومور أو برومور البوتاسيوم) وحشيشة الهر Valériane بحسب ارشادات الطبيب المعالج

وان كان السبب وجود أنيميا ، أو احتقانات دموية ، أو حالات عصبية عمومية ، أو الحرض Arthritisme أو التسممات ببعض الأدوية وغيرها فتعالج بحسب أنواعها وأسبابها وإذا كان السبب ضعف عصبي تعطى المقويات والطعام المغذي .

ثانياً — علاج موضعي : (١) تمسيد طبلة الأذن ، (٢) تهوية صندوق الطبلة بعمل دوش هواء لمرور هذا في قناة استاكيوس ، (٣) تعمل حمامات للأذن بمحلول مكثف من المورفين والأتروبين بنسبة ٢٠ سنتغرام من هذه الأجزاء إلى ٢٠ غرام من الماء ، (٤) تُبَلّ قطعة من القطن في مزيج من الكلوروفورم وصبغة الأفيون والهيوسيامين (أجزاء متساوية) وتُدهن بها القناة السمعية الظاهرة وقد أدّى استعمال هذا العلاج إلى نتائج حسنة ، (٥) قد تقضي الضرورة أحياناً باستعمال العلاج الكهربائي : التيار الفارادي أو تيار غالفانيك المستمر ، سواء كمحوّل أو كمهيّج أو كمنبّه لأعصاب سلسلة العظيمات الموجودة في الأذن الوسطى ، أو أيضاً كمحرّضة أو مثيرة لحساسية العصب السمعي ، غير ان تأثير هذه التيارات لا يفيد في الغالب إلاَّ مؤقتاً . ولا ينكر أنها تنفع جدًّا في حالات الدوار والصمم لكنها تُعَد غير كافية في علاج طنين الآذان ولا تزيل الا قسماً من هذا الطنين ، (٦) قد يكون طنين الآذان ناشئاً عن حالة مزمنة ، مصحوباً بجفاف زائد في الغشاء المخاطي في حالة الاصابة بالتهاب الأذن الوسطى ، أو عن سيلان الأذن وانثقاب الطبلة ، أو عن انسداد بوق استاكيوس ، أو عن حالة التهابية في الغشاء المخاطي لمجاري السمع ، فتستعمل حينئذٍ لأجلها العلاجات الموافقة بحسب كل حالة كما يتراءى للطبيب المعالج .

وفي كل حال لا بدّ من اجراء فحص دقيق للأذن لمعرفة أسباب العلة وذلك عند أحد الاخصائيين المشهورين بأمراض الأذن والأنف والحنجرة ، للعمل على ازالة هذا الاضطراب ومعرفة أي قسم من الأذن هو المصاب . حتى وان لم يكن هناك سبب ظاهري لذلك أو كانت العلة خفيفة مثلاً ، فالفحص الخصوصي هو جيد وكفيل أن يسكّن روع المصاب ويطمئن باله .

(بيروت) الدكتور عبده رزق

هل اقتبس الفراعنة والبابليون والهنود تمدنهم عن المكسيك

وجوه الشبه

بين المكسيك ومصر (١)

أتاحت لي الفرصة زيارة بلاد المكسيك قبل ثلاثة أشهر من الحرب الأخيرة ودعاني صديق لتناول طعام العشاء في إحد المطاعم الكبرى في مكسيكو العاصمة، فاسترعى نظري لباس الأوانس العاملات في المطعم اذ ذكرني هذا اللباس بما طالما رأيته في متحف القاهرة من موميات فرعونية . ذلك لأنه لا يختلف عن كسوة المرأة في عصر الفراعنة في تفصيله وألوانه ونقوشه ، من غطاء الرأس حتى حذاء الرجل

« ولماذا اختار صاحب المطعم لعاملاته ألبسة بنات النيل في العصر الفرعوني ؟ »

وجهت هذا السؤال لرفيقي فتبسم وقال : « إنّ هذا الزّي إن هو إلاّ زي نساء المكسيك في العهد القديم ! » .

فأثار هذا الجواب انتباهي وشوقي للتعرف الى وجه الصلة التاريخية بين مصر والمكسيك وازددت اهتماماً بهذا حينما شاهدت في سهل « تيوتيهواكان » على بعد خمسين كيلو متراً من العاصمة ، وفي تشوشيكالكو وتشولولا ، اهراماً مثل اهرام مصر ، قائمة على قاعدة هندسية لتكون مزولة دالة على فصول السنة مثل هرم الجيزة الأكبر ، وتساءلت أيضاً فيما إذا كانت الثقافة المصرية بلغت القارة الأميركية ، وحملت معها تصميم الاهرام . واسترسلت في التفكير الى أبعد من ذلك فقد تساءلت عما اذا كانت عقيدة خلود النفس وما رافقها من فن التحنيط رافقت أيضاً في رحلتها من مصر الى المكسيك مشروع الاهرام ، لما بينهما من الارتباط ولا سيما لأن طريقة التحنيط كانت واحدة عند الفراعنة وسكان أمريكا الجنوبية ولا تختلف حتى في الصغائر .

وهذا الاهتمام بالماضي أثار في نفسي حب الاستطلاع والمراقبة في الأحياء لعلي أعرف هل لا يزال التشابه بين مصر والمكسيك ملموساً في العصر الحاضر .

---

(١) محاضرة ألقاها سعادة محمد جميل بيهم بك رئيس جمعية اخوان الثقافة في بيروت في نادي الجمعية في ٥ من مارس سنة ١٩٤٨

على ان المفروض أن يكون وجه الشبه بين القطرين بعيداً ، لأن بلاد المكسيك قائمة على جبال شمّ وأودية غائرة وأهلها تتجلى فيهم صلابة الصخور وضراوة النسور ، بينما ان مصر تنبسط حول وادي النيل الخصب الريّان فتتجلى في سكانها طراوة الأنهار ، وعذوبة تغريد الأطيار . ولكني مع ذلك لاحظت وجوه شبه كثيرة حتى يومنا هذا بين المصريين والمكسيكيين ، وخصوصاً في الأوساط الزراعية . فما أكثر ما يتشابهون في اختيار الألوان وأردية النساء وقلاداتهنّ الذهبية ؟ وما أشد ما يتقاربون في مزاولة الأساليب الزراعية القديمة وأدواتها ، وذلك فضلاً عن بعض العادات القديمة . وهي تتجلى في بعض الحفلات الشعبية وغيرها وخصوصاً في طريقة الخطبة ، على ان وجه الشبه بين الشعبين كثيراً ما يبدو أيضاً في بعض المآكل ، ففي مصر يعتبر الفول (المدمس) الصحن الشعبي . ويقابله في المكسيك طعام الذرة المتبل بالحمض والفلفل وهو عندهم الصحن الشعبي أيضاً والذرة عند المكسيكيين أهم عناصر الطعام ويعتمدون عليها ، مثلما يعتمد الفلاح المصري على الفول ، ويستعملون الأوراق الشفافة من عرانيسها لفائف للتبغ .

وكما ان المصرى يألف بطبيعته الأبازير الحارة ، وتطيب له المآكل الحافلة بأنواع الفلافل والبهار ، فالمكسيكي شديد العناية أيضاً بهذه الأبازير لا سيما الحارة منها . ويبلغ من شغفهم بها أنهم يعملون في مدينة مارده سلطة بالفاكهة حافلة بالفليفلاء الحارة .

هذا إلى ان الخفة في الروح وحب اللهو وعدم المبالاة بالغد ، هي من طبيعة المكسيكي ، كما هي من طبيعة المصريين القدماء . فينفق المكسيكي كسب يومه غير حاسب حساباً للغد على قاعدة أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب .

وإذا حملنا هذا التشابه الكثير بين الشعبين على تأثير الجوّ والحرارة في كلا القطرين دون أن نجعل للتاريخ صلة ما بذلك ، فماذا عسانا نفسر التشابه بينهما في الصناعات القومية الخاصة ؟

فاذا دخلت دكان بائع التحف والصناعات المكسيكية القومية ، والتفت يمنة ويسرة تراقب المنسوجات الوطنية وسائر المصنوعات التي تحتفظ بالطرز المكسيكي ، ورأيت البسط والفخار وأشكال الزوارق وتدبرت فيما تشاهد من نقوش وأصبغة وألوان ورسوم ، خيّل إليك أنك في داخل مخزن من مخازن التحف المصرية في القاهرة . أو في أحد المتاحف الفرعونية

وإلى جانب ذلك لاحظت أن هنود المكسيك ، وهم سواد الشعب ، لايقتصر الشبه بينهم وبين الشرق على مابينهم وبين مصريي وعراقيي الأرياف فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى وجود كثير من التماثل بينهم وبين اهل البادية في سائر الأمصار العربية . هذا ومن يقرأ كتاب

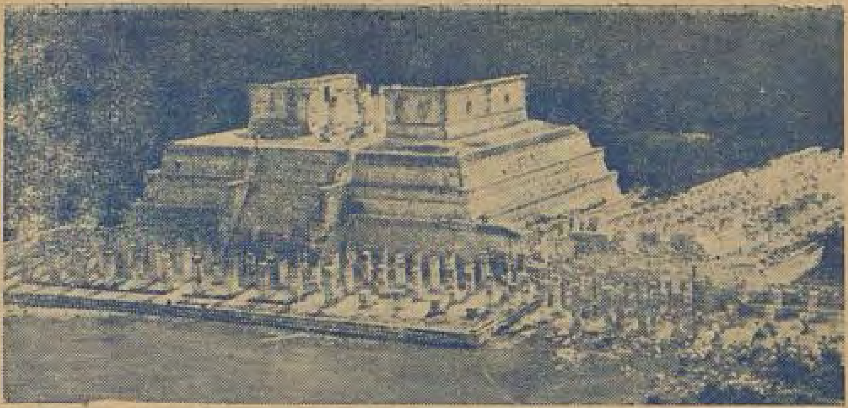

١ – احدى خرائب الآثار في المكسيك

٢ – هرم كورنيفاكا

LA PIRAMIDE, CUERNAVACA.

٣ – خرائب شيشن ايتذا

الفيل والأنثروبولوجيون للعلامة اليوت سميث يساوره العجب أسوة بالمؤلف، ويتساءل كيف تيسر للاميركيين قبل ألف سنة أو نحو ذلك أن ينحتوا تماثيل الفيل مع أن هـذا الحيوان لا يعيش في بلادهم؟ ويتساءل أيضاً معه اذا كانت الثقافة الهندية قد انتقلت من الهند الى القارة الأمريكية، وحملت معها رسم الفيل.

والى ذلك فان من يقلب صفحـات مفكرة عام مضى كان مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات قد أهداها لأصحابه، يستوقف نظره فيها رسم قرية شبيهة بقرى مصر، فيتساءل عن الغاية من نشر هذا الرسم الغريب عن أمريكا، بينما أن المفكرة اقتصرت على ايراد رسوم مشاهد أميركية فحسب، وإذا به يقرأ في الصفحة المحاذية ما يلي: هذا منظر قرية بناها الهنود الحمر منذ الف سنة تقريباً في ولاية نيومكسيكو: وقد بنيت البيوت من نوع الطين الذي يسمونه «آدوبى» وهي كلمة مأخوذة من كلمة «الطوب» القبطية ولا يزال الهنود الحمر يسكنون هذه البيوت».

والواقع أن بلاد المـكسيك هي من أقدم أقطار أمريكا حفولاً بالسكان. فقد قال بعض المؤرخين ان وادي المـكسيك كان مأهولاً بالسكان منذ خمسة وعشرين الف سنة. وقال المؤرخ برسكوت. «ان المـكسيك كانت أبرز بلدان أمريكا اللاتينيـة عمراناً. كما أن سكانها الأقدمين كانوا يمتـازون بذكائهم وأخلاقهم بدليل ما خلفوه من آثار شبيهة بآثار المدنيتين المصرية والهندية وما تركوه من أخبار عن الفتوحات والمغامرات الروائية التي تتمثل فيها أساطير النورمان والطليان التي وردت في الحكايات عن أبطالهم» اهـ.

ولا بدع فان ما بنته قبائل ايلي قبل نيف وألف سنة من الميلاد في غواتيمالا ويوكاتان من مدن، كانت آية في جمال البناء والهندسة ولا تزال آثارها تدل عليها، كل ذلك يعرب عن مبلغ ما وصلت اليه المـكسيك من العمران. ومن يزر مارده في اليوكاتان ويرى فيها تلك الهياكل المتهدمة المعروفة بخرائب «شيشن إيتذا» ير الفخامة والذوق والهندسة، ومثلها خرائب متلا وكياروا. وإنا لنقف هنيهة اراء هذه الآثار وتفكر فيما اذا كانت مصر والهند هما اللتان اقتبستا عن المـكسيك، أم أن المـكسيك هي التي أخذت عنهما. فقد روى بعض المؤرخين أن اهرام شيشيلـكو القائم في ضاحيـة مكسيكو العاصمة، يتراوح عمره بين الأربعة والعشرة آلاف سنة. وإذا صحّ ان هذا الاهرام بني قبل بضعة آلاف من السنين فتكون المكسيك قد سبقت مصر في رفع الاهرامات، وإلا فربما يكون اهرام شيشيلـكو عاصر قيام أول اهرام بنته الأسرة الأولى من الفراعنة، أو أنه بني على أقل تقدير في حدود العصور التي رفعت فيها اهرامات الجيزة الثلاثة من قبل الأسرة الفرعونية الرابعة.

هذا وقد بدا لي إشكال آخر منذ ألقيت نظري على الاهرامات القائمة في تيوتيهواكان، وتشوشيكالكو وتشولالا في المكسيك. وسبب ذلك ان هذه الاهرامات مبنية على شكل مدرج طبقات وفقاً لأصول فلكية كيما يعرفون بها المواقيت اليومية والشهرية استناداً الى حركتي الشمس والقمر. وأكبر هذه الاهرامات إثنان أحدهما كان يحمل إسم الشمس والآخر إسم القمر. كما استرعت نظري تماثيل ونقوش بارزة في هذه الاهرامات أشبه شيء بنقوش ورسوم الهند، وغير بعيدة عن نقوش البابليين والكلدانيين. بينما إن اهرامات الجيزة الثلاثة كانت ملساً لا طبقات فيها ولا زخارف.

ووجه الاشكال الذي حدث في نفسي فيما إذا كانت المكسيك قد أخذت فكرة الهرم عن غير مصر مع ما تنطوي عليه من المقاصد وخصوصاً الدينية وذلك لأنهم عثروا في آثار بابل على ما يدل ان البابليين القدماء كانوا يبنون أبراجهم العالية على شكل الهرم المدرّج طبقات وكل طبقة أقل مساحة من التي تحتها على نحو اهرامات المكسيك.

ولكن ماذا نقول عن التمثال الجاثم أمام مدخل معبد المحاربين في خرائب « شيشن إيتذا » في يوكاتان؟ فاذا كانت فكرة الاهرام لم تنقل عن الفراعنة، بل نقلت عن بابل، فهل ترى ان هذا التمثال الكبير الذي يمثل رأس امرأة في جسم حيوان غير مقتبس أيضاً عن أبي الهول الرابض في الجيزة؟.

وماذا نقول عن تلك النقوش ذات الشكل الصوري التي وجدت في المكسيك على قبور بعض القواد العظام وغيرها؟ وهي تشبه الكتابة الهيروغليفية المصرية المنقوشة على الأحجار والبردي.

* * *

تلك معلومات لا تزال سرّاً من الأسرار لأن التنقيب عن الآثار في المكسيك يرجع الى غرة هذا القرن فقط.

ولعلّ المكسيك التي تجمع في ماديتها أصولاً تتفق مع الهند وبابل ومصر كانت على اتصال مع الشرق، ولعلّ أدوات الاتّصال بين أجزاء الأرض في عهد قديم كانت أرقى درجة من السفن والمراكب ذوات الأشرعة. وما يدرينا اذا كانت حكاية بساط الريح وليدة حقيقة أضاع الزمان معالمها وان ما بقي منها يتناقل على الألسن أصبح من قبيل أسطورة من الأساطير.

(بيروت) محمد جميل بيهم

٤ — خرائب شيشن ايتذا

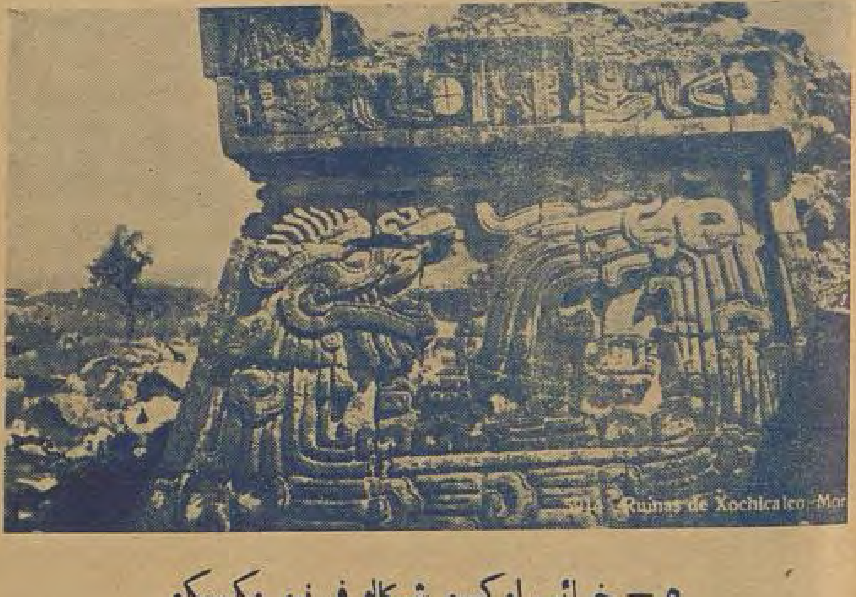
Ruinas de Xochicalco, Mor

٥ — خرائب اوكسيو شيكالو في نيو مكسيكو

٣ – سياسة

الارشاد الاجتماعي

على أي أساس ينبغي أن تقوم ؟

ب – الدراسة الاجتماعية المقارنة

كان تيار النشاط الفكري العام محصوراً حتى عهد قريب في نطاق السياسة المطبوعة بطابع الجدل الحزبي المتطرّف الذي يضلّل ويؤذي أكثر مما يهدي، وينفع، ولم تكن قضية الوطن الكبرى، وهي لا تزال بحق مشكلة المشاكل عندنا، لتأذن بنصيب من العناية الجدية ينصرف إلى غيرها من المشكلات الاجتماعية الدقيقة التي بدأت طلائعها تبزغ في أفق المجتمع المصري الحديث، وتشغل بال بعيدي النظر من الكتّاب والباحثين من الوطنيين والأجانب على السواء.

ولقد ظلّ الرأي العام المصري، نتيجة لهذا التجاهل المعيب الذي منيت به مشكلاته الاجتماعية زمناً مديداً، قاصراً عن إدراك كثير من حقائق التطوّر الاجتماعي الذي بدأ يفعل فعله في بيئتنا القومية منذ فجر ثورتها الوطنية الكبرى عام ١٩١٩، وكما عجز الكثيرون من قادة فكره، مع الأسف الشديد، عن التوفر الجدي على بحث أهم المشكلات الاجتماعية ودراستها الحديثة، وإعطائها ما تُعطاه المسألة السياسية من اهتمام وعناية حتى تتعادل «القيمتان» السياسية والاجتماعية لنهضتنا الحديثة في نظر المستنيرين، بل وأنصاف المستنيرين من أبناء الشعب.

ومن البداهة المقرّرة في علم الاجتماع، الذي تطوّر تطوراً رائعاً في العقود الخمسة الأخيرة، أن القوة المحرّكة للنهضات السياسية في الشعوب المتخلّفة نسبيّاً في مضمار الكفاية الذاتية — هذه الكفاية التي تُعد الركيزة الأولى في صرح الاستقلال السياسي والاقتصادي معاً هي قوة الإنشاء الاجتماعي Force of Social Reconstruction وأعني بها قدرة

« الوعي الجمعي » في الشعب ، باعتبار هذا الوعي المقياس الصادق لقوة تضامنه وحيويته ، على جعل مجتمعه على الدوام مجتمعاً متحرّكاً Sociètè Mobile لا مجتمعاً جامداً أو متخلفاً imobile عن مواكب غيره من المجتمعات ذات الطاقة الانتاجية النامية

ولا نكران في أن مجتمعنا المصري بظروفه الراهنة لا يزال تعوزه الى مَدًى بعيد هذه القوة الانشائية الخلاّقة ، في ناحيتيها المادية والمعنوية على حدٍّ سواء . والواقع أنه كان من جراء حاجتنا الى بعث هذه القوة في كيان مجتمعنا الذي ما زال يجتاز فترة انتقاله ، أن ظلت غالبيتنا لا تستطيع أن تفهم من مدلول كلمة « الاصلاح الاجتماعي » أكثر من مجرد أمانيّ عريضة وأحلام وتصوّرات لا يزال بريقها يبهت أمام الأحداث المتعاقبة حتى يتلاشى من مخيّلاتهم المكدودة ، على حين يذهب فريق آخر مذهباً متطرّفاً يجعله لا يفهم من معاني الإصلاح الاجتماعي غير الصور الهدّامة والأوضاع الشاذة التي لا يمكن أن تستقيم مع مقوّماتنا أو موروثات بيئتنا الشرقية وظروفها الخاصة .

وكم يؤلمنا أن نقول ، ونحن آمنون من أن نتهم بالمبالغة ، ان عيب الارتجال إذا قُدّر له أن يبرز بصورة ملموسة في أية ناحية من نواحي سياستنا العامة ، فانه لن يكون أقوى بروزاً أو أبين ظهوراً منه في سياسة الاصلاح الاجتماعي التي نُبدي فيها القول ونعيده في الأحاديث المستفيضة والخطب الرنانة المنمقة ، دون أن نضع لأنفسنا حتى اليوم برنامجاً واضحاً محدّد الأهداف مرسوم خطى التنفيذ ، مطابقاً ، ما استطعنا سبيلاً الى المطابقة ، لظروفنا الاقتصادية والاجتماعية وبخاصةٍ في ظل هذه الفترة الانتقالية الدقيقة التي نجتازها اليوم .

ولا يحسبنّ أحد أن مبادرتنا الى تقليد مشروعات السنوات أخيراً يُعد بداية عهد جديد للتنظيم العلمي لجهود الاصلاح الاجتماعي المبعثرة والتنسيق الفني لمشروعات الانشاء والانتاج لرفع مستوى الطبقات الدنيا ، بل إن الحقيقة التي لا تكاد تخفى مراراتها علينا جميعاً ، هي أننا حتى في هذا التقليد الجديد ارتجاليون أكثر منا سياسيين مجرّبين أو مدبّرين فنيين لا يعوزهم الالمام والبصر بنهايات كل مشروع ولا تنقصهم القدرة على التقدير السليم للنتائج والمعقّبات الى الحدّ الذي يجعلنا لا نخطو خطوة واحدة ما لم نوقن أنها ستكون في الاتجاه

السليم، حتى لا تتكبد – كما يحدث غالباً – من الجهود المضنية والنفقات الطائلة، مالا يكاد يجدي أو يُثمر.

وليس النقص هنا نقص أموال يمكن تدبيرها أو أيدٍ عاملة وسواعد منفذة يستطاع تكتيلها وحشدها بقدر ما هو نقص بيّن في الدراسات المنظمة والجهود المنسقة والفنيين الذين لهم خبرة سابقة بتفاصيل كل مشروع وقدرة على الالمام بعناصر، من النواحي الاقتصادية والمالية والاجتماعية، بل والنفسية أيضاً!

والحق الذي لا نستطيع نكرانه أن الدراسات الاجتماعية بالمعنى العلمي المفهوم في بلدان الغرب وأوساطه الثقافية، لا نكاد نحس لها أثراً في حياتنا عامة، هذا إن لم تكن في حكم المعدومة أصلاً، والدليل على ذلك هذه النزعة الارتجالية المسيئة التي كادت تصبح من أبرز سمات الحياة العامة عندنا.

وقد تكون ثمة دراسات واسعة مشبعة وتقارير ضافية مشعبة، تتمخض عنها لجان هنا ولجان هناك، ولكن الوضع هنا ليس وضع مقدار وكم، بل وضع نهج وكيف، وليس كذلك وضع سياسة حزبية معينة تقضي عليها سياسة حزبية معارضة، بقدر ما هو وضع سياسة قومية عامة تعلو أسسها وقواعدها التي لا خلاف عليها فوق جميع الأهواء والاختلافات.

وإلا فأين معاهد البحث الاجتماعي الفني عندنا، بل أين خبراؤه وإخصائيوه؟

أو أين الدراسات الجامعية العالية في هذا الحقل الخصب والمجال الرحب، بل أين مراكز التجارب الفنية والعملية التي تجري على الدوام في محيط البيئتين الريفية والمدنية لتكون نتائج هذه التجارب نواة صالحة لسياسات انشائية ناجحة ومشروعات عمرانية لا يقدر لها الاخفاق والفشل؟

وأخيراً وليس آخراً، أين الاحصائيات التحليلية الدورية التي تتناول شتى تفاصيل الحياة الاجتماعية وسائر صورها وأوضاعها لتعطي للباحث الاجتماعي جزءاً كبيراً من المادة الحية التي ستكون قوام بحثه في الحالات الاجتماعية المختلفة وهو بسبيل تقصيه لعللها الخفية وأسبابها المطوية في تضاعيف عديد من تلك المظاهر الخارجية التي تخدع غالباً ولا تصدق الا قليلاً.

وهكذا يمتد بنا حبل التساؤل ولا تتكشف الاجابات المتعاقبة الاّ عن حقائق مرّة مؤسفة أو أوضاع ومنظمات «مظهرية» كاذبة!

وهل ثمة أبعث على المرارة والأسف من أن نعلم أن من أهم المعوقات التي قد تحول فترة من الزمن دون توافر المراكز الاجتماعية في قرى المملكة المصرية فضلاً عن إيتاء هذه المراكز ثمرتها المرجوة في تحقيق الاصلاح الاجتماعي في الريف، هو عدم توافر الاخصائيين الاجتماعيين الجديرين بهذا اللقب أو المتخصصين في فن الارشاد الاجتماعي من الناحيتين النظرية والعملية على غرار ما نفهم من هذا الفن وطبقاً لما تحقق منه في مجتمعات الغرب التي سبقتنا أشواطاً بعيدة جدًّا في مجال الخدمة الاجتماعية Social Work ووفقت الى حدٍّ بعيد في تحقيق أهدافها الانسانية الرائعة؟

وفي الوقت الذي نجد بلاداً كالولايات المتحدة الأمريكية تفيض على سعتها بمعاهد البحث الاجتماعي ومراكز الدراسات المقارنة في مشكلات الحضارة الآلية وما خلفته من آثار في محيط المجتمع والأسرة، بل في الوقت الذي تخصص الجامعات فيها على اختلاف أساليبها ومناهجها في الدرس والبحث، أموالاً جمة وجوائز قيّمة لموالاة البحوث المستفيضة والتجارب الواسعة في هذا النطاق الحيوي، نجد بلادنا على سعتها وعلى شدة حاجتها الى البحوث الاجتماعية وعلى أخذها بحظ وافر من التعليم الجامعي الحديث، وعلى قيام الجمعيات العلمية في ربوعها، لا تكاد تفرغ من الجهود العلمية والعملية لهذه الناحية، الاّ أهونها وأتفهها ولا تخصص من الأموال للنفقة على هذه البحوث إلا أقلها وأضألها!

وإني إذ أكتب الآن هذه السطور أجد بين يدي وأمامي على مكتبي مجموعة مختارة من أروع وأمتن البحوث والدراسات الجامعية في شتى موضوعات الاجتماع والاقتصاد.

فهذا بحث ضافٍ لجامعة «مينيزوتا» عن مشكلة البطالة يمتاز بنزعته العملية ومشوراته ونصائحه التطبيقية، وقد توفر عليه نخبة من أساتذتها الاجلاء الذين تطوعوا لهذه الدراسة الشاقة عند ما اشتد عصف الأزمة العالمية خلال أعوام ١٩٣١ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ بالمؤسسات المالية والصناعية الكبرى في أمريكا مما كاد يهدد مركز البلاد الاقتصادي.

وهذا بحث مقارن جامع لجامعة وسكانسون عن مشكلات التربية والتعليم في دور الأزمة

الاقتصادي وسيطرة الآلة ، وتلك دراسة علميــة تطبيقية رائعة لجماعة من أساتذة جامعـة « نورث كارولينـا » عن مشكلة « اليوچونية Eugenics » وأعني بها تحسين النسل بطريق التعقيم .

والحق كان هـذا البحث من أهم البحوث التي استندت إليهـا تشريعاتُ عدةٍ ولاياتٍ أمريكية صدرت لتحقيق هذه الفكرة الجديدة وتطبيق مشروعات هذا الاصلاح الاجتماعي الـكبير فيها .

وثمة بحث طريف آخر مدعَّم بالاحصائيـات الدقيقة والملاحظات العملية الصائبـة للاستاذة « ماري فرامبتون » بجامعة هارڤارد عالجت فيه مشكلة من أعقد مشكلات المجتمع الحديث وأعني بها علاقات الاتصال وعوامل التفاعل الدائم بين بيئة الحضر وبيئة الريف ، وأثر ذلك كله في تدرج النسب المئوية لهجرة السكان من إحدى البيئتين إلى البيئة الأخرى ، وأثره أيضاً في مشكلة التعطل الدائمة والمؤقتة ، ثم كيفية تمهيـد وخلق فرص العمل بوضع ميزان دقيق عادل لتنظيم الهجرة بينهما .

وغير هـذا وذاك دراسات ودراسات لمعـاهد وهيئات كانت ولا تزال عمدة السلطات الحكومية والمجالس التشريعية فيما تقـوم به من مشروعات كبيرة وتشريعـات سديدة في ميدان الإصلاح الاجتماعي الذي قفز في هذه البلاد قفزات رائعة خليقة بأن تحتذى حسناتها من جانب البلاد التي لا تزال متخلـفة إلى حدٍّ بعيد في هذا الميدان .

أما مجالي الاصلاح الاجتماعي في انجلترا ودول شماليّ أوربا ، كدانمركة وسويد ونروج وغيرها ، فحدّث عنه ولا حرَجَ ...

فماذا نحن واجدون عندنا في مصر من مثل هـذه الدراسات والبحوث ، وماذا أفدناه من جهود كثير من الهيئات والجمعيـات العلمية في ميدان تعد الخدمة فيـه من أهم أركان ومقومات المجتمع القويّ السليم ؟

اللهمّ لا شيء يعتد به من الناحيتين العلمية والتطبيقية فيما خلا نتفاً ضئيلة لا تـكاد تغني أو تسمن من جوع ، تتحدث عن جهود فردية مبعثرة تذهب كما قلنا صرخةً في واد ! ...

إننا إذن جِدُّ فقراء في محصول هذه البحوث الاجتماعيـة العلمية ودراساتها التطبيقية

المقارنة التي تكوّن بحقٍّ « والوعي الجمعي » المرهق عند عامة أفراد الشعب .

نعم إن مشكلاتنا الاجتماعية في الريف ما تزال تنتظر بحوثاً أوفى وأكمل من الناحيتين الاجتماعية والمالية عن مسائل الغذاء الصحي والمسكن الملائم والملبس المناسب والحرفة المربحة ، كما لا تزال تنتظر دراسة أوفى لتدبير طرق الوقاية الميسورة من غوائل الأوبئة المتوطنة والعارضة التي تجد من بيئة الريف الفقيرة الجاهلة مرعىً خصيباً تعيث فساداً فيه أياماً وشهوراً ! ..

وثمة مجال النشاط التعاوني في شتى نواحي الحياة في القرية وهو النشاط الذي عليه المعول الأكبر في رفع مستوى الحياة فيها . أين دراساته التطبيقية وبحوثه العملية وإحصائياته البيانية ؟

كذلك الحال في مشكلات الأسرة ، مع ملاحظة الفوارق المادية والثقافية والنفسية بين حالة الأسرة في المدينة وحالتها في القرية الريفية المحدودة الموارد والأساليب . أين البحوث والاحصائيات الدقيقة المنتظمة عن كل ما يتعلق بموضوع الطفولة ، وما يتصل بمشكلتي الزواج والطلاق إلى جانب التحليل العملي لمظاهر ونتائج العيوب الخلقية المتوطنة في بيئات الأسر ، وبخاصةٍ في الحواضر والمدن ، تلك العيوب التي تعد معاول هدم وتخريب في كيان المجتمع ؟

إذن لا بدّ من إعداد العدة لهذا كله وتنظيمه التنظيم الذي يكفل إيتاء الثمرة المرجوّة من ورائه ، في سبيل إصلاح المجتمع المصري ريفه وحضره ورفع مستوى طبقاته ، وتقريب الفوارق البعيدة التي تفصل اليوم بينها وتحول دون تنمية روح العدالة الاجتماعية أفرادها لنجعل مبدأها هو الأعلى دائماً وهو الأولى باستهدائه في شتى محاولتنا للانشاء والاصلاح والترميم .

إن أول ما يجب أن نعني به إذن هو تأصيل الدراسات الاجتماعية المقارنة في بعض بيئات البحث الاجتماعي العلمي في مصر ثم العمل بغير تريّث أو وناء على إعداد الاخصائي الاجتماعي وكذلك المرشد الاجتماعي الذين يكون في مكنتهما فهم رسالة الاصلاح والارشاد على حقيقتها والنهوض بعبء الدعاية الاجتماعية المنتجة في شتى البيئات والأوساط . وليكن

في علمنا جميعاً وعلم المعنيين بهذه الشؤون خاصة سواء كانوا من رجال السياسة أو من أعضاء البرلمان أو من رجال القانون والتشريع أو من كتّاب الدراسات الاجتماعية المختلفة . أنه بغير الأخصائي الاجتماعي الكفء أو بغير المرشد الاجتماعي المجرّب لن تقوم للدعاية الاجتماعية أو للارشاد الاجتماعي في مصر قائمة .

والحق أن الغرض المقصود من العناية بأمر هذه الدراسات والبحوث الاجتماعية هو تزويد الأخصائي الاجتماعي ، الذي سيكون نواة المراكز الاجتماعية في الريف ، وكذلك المرشد الاجتماعي الذي سيكون لسان حال الاصلاح عامة سواء في الحضر أم الريف ، بخلاصات وافية من هذه الدراسات فضلاً عن أنه سيكون من المشاركين بصورة إيجابية فيها . ولتحقيق هذا الغرض الكبير اقترح الاقتراحات الآتية :

١ — توسيع اختصاص مدارس الخدمة الاجتماعية وإفساح المجال فيها أمام الدراسات والبحوث الاجتماعية المقارنة من الوجهتين النظرية والعملية ، ومنح إجازات قيمة لمكافأة البحوث التي أستكملت عناصر البحث العلمي السديد . على أن تُمد هذه المدارس بالمعونة المالية التي تكفي لاعانتها على القيام بوظيفتها الأولى في الأعداد لممارسة الخدمة الاجتماعية .

٢ — يُراعى من الآن فصاعداً أن يكون اختيار من يتولون مهمة الارشاد الاجتماعي أو من يشغلون وظيفة الأخصائي الاجتماعي في المراكز الاجتماعية المزمع تعميمها في أنحاء الريف ، محصوراً في ذوي الاستعداد الخاص من خريجي قسم الاجتماع بكليات الآداب بالجامعات المصرية ، على شريطة تدعيم مناهج هذه الأقسام وإقامتها على أسس فنية وعملية الى جانب الأسس النظرية والفلسفية التي تطبع مناهجها الدراسية حتى اليوم ، وفي خريجي مدارس الخدمة الاجتماعية ومن كانوا حاصلين من جامعات الغرب على شهادات معادلة لشهادات هذه المعاهد والكليات . وبهذا وحده نعوّض من فقر قسم الارشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون الاجتماعية في الكفايات التي تستطيع أن تضطلع بعبء هذه المهمة وأن تنجح فيها .

٣ — بعثُ مكتب البحث الفني ، بادارة البحوث الفنية والتشريع ، من رقدته ، وذلك بتزويده بمكتبة عامرة وبقسم فني للاحصاء الحديث وبكفايات تعكف على عمل دراسات

اجتماعية منظمة لمشكلات المجتمع المصري لتكون نبراساً لوزارة الشؤون الاجتماعية ولأعضاء البرلمان عند تحضير مشروع معين أو رسم برنامج منظم من برامج السنوات مع ضرورة عقد صلات قوية بين هذا المكتب الفني وبين مختلف الهيئات والجمعيات والمعاهد التي تقوم بعمل أبحاث مشابهة وتضطلع من جانبها بنفس هذه المهمة ، وذلك بقصد التعاون العام على انجاح كل مشروع من مشروعات الاصلاح .

٤ — تأليف لجنة دائمة ، على أن تحرر تحريراً كاملاً من شتى معوّقات « الروتين الحكومي » يكون قوامها أعضاء عاملين يمثلون وزارات الشؤون الاجتماعية والمالية والعدل والصحة والزراعة ، ومعهم أعضاء آخرون لتمثيل اللجان البرلمانية لهذه الوزارات ، وتكون اجتماعات هذه اللجنة بصفة دورية منتظمة لبحث كل مشروع عام من مشروعات الاصلاح الاجتماعي والعمل على اخراجه الى حيز التنفيذ العملي ، بعد الاقتناع بسلامة أسسه وصحة أهدافه مع تولي هذه اللجنة وضع سياسة ثابتة تقسم على سنوات ، لتحقيق شتى نواحي الاصلاح في هذا الميدان حتى لا تجيء الجهود الحكومية ثمرة ارتجال معيب .

٥ — يجب أن تعني وزارة الشؤون الاجتماعية بارسال بعوث سنوية الى البلدان التي ازدهرت فيها مشروعات الخدمة الاجتماعية ، لاعداد نخبة صالحة من الاخصائيين والمرشدين الاجتماعيين ليكونوا نواة البرامج الاصلاحية الكبرى المزمع القيام بها خلال السنوات القادمة . وكم يؤسفنا أن تكون وزارة الشؤون الاجتماعية هي أقل وزارات الدولة اهتماماً بهذا الموضوع الكبير رغم ضخامة العبء الملقى على عاتقها ولو أنها بدأت تنشط أخيراً بايفاد مبعوثين لتحقيق هذا الغرض .

وإذا كنت لم أفصّل بطريقة علمية بحتة عناصر الدراسة الاجتماعية المقارنة فلأن ذلك متروك أمره الى طريقة كل هيئة أو منهج كل معهد في إعداد الدراسات والبحوث ولكل أسلوبه كما لا يخفى في تجميع عناصر الدراسة واختيار موضوعاتها وتنظيم مراجعها وتجاربها وليس من العلم في شيء فرض منهج واحد لا يتغير بتغير الموضوع أو البيئة أو حالة الافراد النفسية وتفاوت ظروفهم الاقتصادية والتعليمية وتباين استعداداتهم تبعاً لذلك لتقبل كل إصلاح جديد .

جمال الدين صبرى

رئيس قسم الارشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون

(للبحث صلة)

قصة فنان

أحبك حب الحياة!

١ — على ضفة الجدول الرائق   وفي كنف الشجر الباسق
وحيثُ الأزاهير تسبي النهى   وتفتنُ في صمتها الناطق
وحيثُ الحمائلُ صدّاحة   بكلّ بريء الهوى صادق
وحيثُ الجمال يتيه العقولَ   فتسبح في حُلُم شائق
هناك على بعض تلك الرُّبي   ترى العين كوخَ فتىً عاشق

٢ — فتىً في الغرام ولكنّما   ترى الشيبَ يلمع في عارضيه
كثيرُ التجاعيد مُحدودِبٌ   وأعرجُ يمشي بعُكّازتيه
أطلّ من الكوخ في ليلةٍ   يُقلبُ في لهفةٍ ناظريه
وكان الهلالُ يُنيرُ الطريقَ   ويمحو الدُّجى من ذرا جانبيه
فأمّلَ في شوقه أن يرى   خيالاً من الأفق يسعى إليه

٣ — خيالَ حليلَته المصطفاةِ   خيال حبيبَتهِ الغائبه
خيالَ التي وهبتْ فنَّهُ   جمالَ فُتوَّتهِ الذاهبه
مضت للمدينةِ مدفوعةً   بشهوة أحلامها الخالبه
وما للمدينة غيرَ الطلاء   وغيرُ مفاتنها الكاذبه
مفاتنُ تسبي قلوبَ الأنامِ   ولا سيما طفلةٌ لاعبه

٤ — ومرَّ النسيمُ به بارداً   فأرعشَ أوصالهُ فاضطرب
فأغلقَ كوَّتهُ يائساً   وأمسكَ قيثارهُ المنسحب
وصادفَ ناظرهُ شمعةً   تجودُ بأنفاسها في اللّهب
فمرَّ بخاطرهِ خاطرٌ   وقد صوَّرت حالَ قلبٍ أحب
فداعبَ قيثارهُ باليدينِ   وأنطقهُ كلَّ لحنٍ عجب...

٥ — تُعيِّرهُ أنهُ شائخٌ   وعاجزُ ساقاهُ عُكّازتاه
وتغلو فتسخرُ من فنهِ   وتسخرُ في فنه من هواه
وما الفنُّ؟ إذ لم يكن وحيها   ولمحَ العيونِ وهمس الشفاه
ومن وحيها. نغمٌ خالدٌ   دعاه «أحبكِ حُبَّ الحياه»
ترنّمُ الليالي بترجيعهِ   ويخفقُ في كلّ قلبٍ صداه

٦ — وكانا وكانت حياتاهما أحاديثَ أهلِ القرى الشائعه
وأنغامُ حبهما أصبحت على كل قيثارةٍ عاشقه
طواها كلؤلؤة حرَّةٍ يخافُ عليها اليدَ السارقه
ولكنها أنكرتْ سجنها وثارتْ بأغلالها حانقه
فلما أتاها نداءُ الحياة أجابتْ طبيعتها المارقه !

٧ — وها ذاك فصلُ الشتاء الطويل وها نحنُ في ليلةٍ عاصفه
وها قمر الليل فوق الدروب تلثَّمَ بالديم الزاحفه
أتسمع لحناً ؟ .. أجل .. إنه من الكوخِ .. أنغامه راجفه
ألمت به وحدةُ العاشقين ويا طالما سامرتْ عازفه
فتىً باتَ يبكي بأنغامه وفي فمه بسمةٌ زائفه

٨ — مضى الليل فانكبَّ فوق الخوان وما زال يحضن قيثاره
بجانبه شمعة ألهمت لحون الصبابة أوتاره
وفي جفنه حُلمٌ راجم يرنح بالوصل أفكاره
وثمَّ على الدرب همسٌ لطيف كما داعب الطلُّ أزهاره
وثمَّ خيالٌ .. بلى قد دنا يُقلّبُ في الكوخِ أنظاره

٩ — أجل هي زوجته أقبلت وقد كاد يغرب نجم السحر
تحاذرُ تنبيههُ من كرى وتدنو وفي ناظريها الخطر
وها هي تحمل عكازتيه وتلقيهما خارجاً في حذر
وترمي بشمعته في الأثاث فيضري اللهيب ويسري الشرر
وتخرجُ موصدةً بابها وتسرعُ للموعدِ المنتظر

١٠ — على الجسر ها هي ذي مع فتىً فتىً .. كان أوقعها في هواه
تدور يداه بأعطافها ويدنو فيلثم منها الشفاه
وهاهوذا الكوخ وسط اللهيب يئزُّ من النارِ تفري حشاه
أتسمع لحناً ؟ .. أجل .. إنه من الكوخ والأفق يطوي الفتاه
تصارعهُ النارُ لكنه يُنادي أحبُّكِ حُبَّ الحياه !

(القاهرة)

يوسف جبرا

بين العالمية والقومية

عجيبٌ أمر الانسان : انه كرّس القرون الطويلة خارجاً من نطاق دنياه ، هائماً بما وراء الحس ، باحثاً عن أسرار الغيب ، حالماً بالآخرة ، مفكراً بالخالق ، مغمضاً العين عن الخليقة وشؤونها فلم يتفرّغ لحياته الدنيا إلاَّ بعد أن أنجز الأساس الذي ترسو عليه أصول حياته في الآخرة . إنه جدّ وكدّ في الأزمنة الخالية ليدرك أسرار عالم ما بعد الموت ، ولم يخطر له ببال أن يهتم بمصيره وكيانه على هذه الأرض ، ويتفهم جوهر العلاقة بين الأفراد ، وإيجاد الانسجام في الروابط التي تنبثق عن كيانهم واجتماعهم . ومن يدري اذا كان الانسان على صواب إذ حاول أن يقيم الدُّنيا على أساس من الدين وأن يغرق منذ فجر حياته في خضم الغيب واللامحسوس ، ويسعى لاعتناق دين يلوذ به هرباً من هواجسه ومخاوفه وقلقه ، ويدأب للذّب بحرارة عن هذه العقيدة ، ويجد لنشرها خارج تخوم وطنه ، ويلقح بعبادتها قوماً غير قومه ، رغبة أو رهبة ، ولو أدى ذلك الى نشوب الصراع بين الجماعة التي يحدوها الحماس الديني والجماعة التي تأبى إلاَّ التشبث بتراث قديم قدّسته أجيالاً . ولعله أخطأ إذ آثر الغيب على الحاضر ، واهتم بتنظيم السماء قبل أن يبدأ بتنظيم الارض ، وانزوى يتخيل سماء تسعد فيها نفسه بعد الموت ، دون أن يسعى لإزالة الشقاء الذي لا يزال ينصب على نفسه ، والعذاب الذي يتدفّق على بدنه ، والمساوىء التي يتجرعها ويورثها أعقابه . والمتأمل يرى البشرية قد قنعت بما تملك من الكنوز الدينية ، وباتت لا تحلم بمجيء رسل وأنبياء يكرّزون بالملكوت ، ولا تستشف الكون يتمخض عن ولادة نبي جديد . ألأن الرسالات الدينية بلغت ذروة الكمال المطلق ، أم لأنّ الاختبارات المتراكمة قد برهنت على أن الدين لم ينقع غلة البشرية التي يحدوها الطموح ويحركها الطمع ، ولم يأتها بالترياق لتبرأ من أوصابها ؟

ولئن كانت الحياة البشرية وكل ما يمتُّ إليها بنسب قد صادفت صدوفاً من الانسان

فيما مضى من الأزمنة ، فانها أصبحت شغله الشاغل في العصر الحاضر وديدنه وموضع تفكيره ومحط آماله . فإذا ما توعرت الأمور عليه ، وتراكمت المصاعب ، فلأنه حديث العهد بمعالجة القضايا التي يقوم عليها مصيره ، غير عالم بأسرارها وخفاياها . لقد ذهب البعض الى القول أن اكتشاف دوران الأرض ، والاهتداء الى نظرية التطوّر وأصل الانسان ، قد طعنا الكبرياء الانساني في الصميم وأزلاه من عليائه فقد نصت النظرية الأولى أنّ الأرض التي يحيا عليها ليست مركزاً للكون ، والنظرية الثانية أظهرت له بوضوح وجلاء أنه ليس أسمى أصلاً من الدودة ، وليس أنقى طينة من سائر الحشرات والهوام . هذا العصر الذي شهد ولادة هاتين النظريتين وانتشارهما ، شاهد ظاهرة في التفكير لم تخطر ببال . هذا العصر شاهد انصباباً كليًّا من الانسان على الانسان وعمًّا كل ما يتعلق به ، واختلفت النظرة عن ذي قبل ، فهو مهما كان أصله ولونه ودينه وموطنه وطبقته ، نقطة الاهتمام ومركز الكون ، وموضوع كل بحث ورائد كل رأي ونظرية . هذا الولع الشديد بالانسان والسعي لاستكناه حقيقته الجسدية والنفسية ، والرغبة في إيصاله الى محجة الخير والفلاح ، والاختلاف بالوسائل والغايات ، لم تشهد له العصور السالفة نظيراً . هذا الكلف بتحديد مركز الانسان في الكون ، وتنسيق العلاقات المتنوعة المتشعبة بين أفراد المجتمع الواحد أولاً ، وبين المجتمعات المختلفة ثانياً ، هو باعث القلق الذي ينتاب العالم اليوم ، وأس الخلاف في الآراء وتضارب النظريات . انه يكافح اليوم ويناضل لا في سبيل مبادىء هبطت إليه من السماء الأولى أو السابعة ، بل انبثقت من صميمه وعبرت عن رغباته وتلوّنت بطبيعته البشرية . ولأوّل مرة أصبحنا نرتقب انقلاباً في المفهومات يسفر عن الحروب .

في هذا العصر الذي أصبح الانسان وسيلة وغاية ، بلغت الحيرة الأوج . انه عاجز عن انتهاج خير السبل لأنه عاجز عن ادراكها وعاجز عن ايجاد الحل الملائم لمشاكله وعاجز عن تمييز المفاسد التي ينبغي عليه أن يتجنبها . إنه لم يبلغ المطلق في السنن والنظم التي تمخض عنها ذهنه وتولدت من تراكم اختباراته ، وإنها لن يبلغ بها نهاية الشوط مهما بدّل ونقّح ومهما غربل ونقى ، ما دام على علائقه البشرية الموروثة والمكتسبة وخصائصه المتركزة في أغوار نفسه . كالعجينة الطرية في اليد تصنع منها ما تشاء من الأشكال . هكذا تبدو

البشرية للمراقب المتأمل في سياق تاريخها الطويل تكيفها البيئة والاحداث وتطور الفكر ، ويكيفها الأفراد العباقرة وفق ميولهم ومثلهم . وما برحت البشرية منذ أقدم العصور حتى الآن ميداناً لتجارب الآراء التي تتمخض عنها أدمغة الرسل والفلاسفة والمفكرين . إنها تشبه من بعض الوجوه الحيوانات التي تتخذ وسيلة لامتحان المحاولات العلمية. والفرق بينهما ان الحيوان في نظر الباحث مجرد وسيلة ، أما البشرية في عرف المصلح الاجتماعي فهي هدف وغاية . ان العالم لا يرمي الى سعادة الحيوان من وراء هذه التجارب ، لكن المصلح القائد يتوخى قبل كل شيء عز الجماعة ونقلها من حال تشقى بها الى أخرى أكثر نعيماً وأوفر سعادة . والغريب أن يزداد القلق وتشتد الحيرة وتتشعب السبل وتتنوع كلما توغلنا في الثقافة وإستشرفنا الحضارة ، ويسود الهدوء وتنتفي أسباب الخلاف والخصام كلما عدنا أدراجنا نحو البساطة في الوسائل والغايات . فكأن المصاعب قد باتت حليفة لقضايا العصر الحاضر ، ولم يتعمد الانسان خلق الشقاء ليلهو به أو ليبلوه ، بل انه انبثق عن طبيعة النظم التي يسير بموجبها وعن الأهداف التي تنافي سليقته ومثله العليا واختباراته . وإذا ما رأيناه يبحث بإلحاح وقلق عن مخارج لما تشكل الأمور وتقع الشبهة ويتلمس سبل النجاة ، فلأنه يشعر بالخطر الذي يحيق به ، ولأنه لم يعد يستطيع الصبر على المفاسد من أي نوع كانت ومن أي مصدر جاءت ، ولأنه أخذ يشعر بمسؤوليته تجاه ذاته وتجاه أمته .

ولئن اتفقنا على القول ان العصر الحاضر يتميز بتنوع مصاعبه ، وتعددها ووفرة مشاكله وصعوبة حلها ، فاننا نختلف كثيراً عند ما نحاول تعليل الأمور تعليلاً صحيحاً ، ونفسر الأسباب التي كانت أمّا لجملة ما نعاني وما نتجشم . في إمكاننا ان نفاضل بين مخترع وآخر ، ونقايس بينهما من حيث الفوائد التي نجمت عن كليهما على وجه يقرب من التمام ، وتتصف أحكامنا بالصدق أينما نظر إليها بعين التجرد . أما القضايا الاجتماعية فان بحثها من أوعر البحوث وأكثرها تعقداً وغموضاً لوفرة وجوهها وشدة تنوعها فلا تمنح الدارس متكأً يتكىء عليه باطمئنان . وليس في وسع الباحث الاجتماعي أن يمتحن الأحكام التي توصل إليها ليتبين الزائف من الصحيح ، بل يتحتم عليه أن يمكث يترقب حصول الأعراض التي تأتي بها مناسبات ليست في الحسبان ولا تخطر على البال . ولو كانت المجتمعات البشرية مكونة

من أفراد بُلْهٍ ، تجردوا من الحرية والاختيار، وتشابهوا في الخصائص والميول ، لقلنا أننا خاضعون لنواميس مطلقة لا تتذبذب .

* * *

يقول البعض أن نظام القوميات الذي ساد العالم منذ أقدم العصور قد كان من أهم العوامل التي أدّت إلى تشتيت شمل المجتمع البشري لما سبب من حروب متصلة الحلقات في ماضي التاريخ وحاضره . وان البشرية لا تستمرئ طعم الراحة والهناءة إلاّ إذا طلقت مبدأ القوميات وتحوّلت بكليتها إلى النظام العالمي الذي يرمي الى صهر القوميات في بوتقة واحدة تموت فيها كل الدواعي التي تولد التنوع والتمايز ، وتؤدي بالتالي الى التصادم والتطاحن في سبيل البقاء والحصول على خيرات الأرض والتلذذ بها . ومبدأ الدولة العالمية يبغي كسر الحدود والحواجز ليجعل الجماعات البشرية شعباً واحداً لا يتطاحن في سبيل العيش بل يتعاون ويتكافل .

ولنا أن نتساءل : هل في التاريخ أو في واقع الحياة ما يؤيد مبدأ الدعوة الى العالمية أم ان في التاريخ والواقع ما يؤيد مبدأ القوميات الذي يسود في العصر الحاضر ؟. ان فكرة انشاء دولة عالمية وجعل العالم أسرة واحدة حلم من ألذ الأحلام وأمنية من أشهى الأماني . وهي ليست حديثة العهد بل إنها قديمة . ولم تنفرد الهيئات السياسية بالدعوة إليها والسعي لتحقيقها ، بل ساهمت الهيئات الدينية بنصيبها في هذا الأمر ، ولئن تكن الفكرة قديمة فذلك لا يضفي عليها حلة من القداسة ولا يبرهن على أنها قابلة للتحقيق . وان دلّ قدمها على شيء فانما يدل على نزوات طارئة وأطماع عارضة ، وآمال تغذيها الأوهام والخيال الجامح وهي تشير بوضوح الى درجة الفهم في أصحابها : إنهم توهموا البشرية كمًّا لا نوعاً !!.

كان أنبياء اسرائيل يكرّزون بالعالمية ، وتخيلوا أن هدف الجنس البشري في سياق تطوره أن تجتمع الامم بأسرها في هيكل صهيون في ظل عقيدة دينية واحدة . وادعت الكنيسة الكاثوليكية أن روما عاصمة العالم ورادعة الكون » . وأكثر ما تركزت النزعة في القبض على زمام العالم في أقوال البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤) : « . . . نصرّح إذاً ونقول ونقرّر ونعبّر أن خضوع كل مخلوق بشري للحبر الروماني ضرورة يقتضيها الخلاص » وكان شعار فريدريك الثالث ملك النمسا A. E. I. U. O. = Austria est imperare orbi universa

أن السلطة على العالم خاصة بالنمسا » وكان شارل الخامس يطمح الى السيادة العالمية وكان يقول : « دائماً الى الأمام » . ولقد راود هذا الحلم خيال نابوليون ، فكان يطمح ليصبح الرئيس الأعلى للقارة الأوربية ، يهب قواده الممالك والأقاليم ، متخذاً بطانته من الملوك ولا يكون البابا أكثر من وكيله الروحي وتصبح باريس عاصمة العواصم . وكان يتأسف لأنه أتى في زمن متأخر ولم يخلق في العصور الخوالي ! . وإننا نعلم الآن مصير تلك الأطماع التي جاشت في صدور أصحابها ، ونعلم أنها منيت بالإخفاق دون أن تكتب لها الحياة ، سواء تلك التي تفوّه بها قادة روحيون أو حنّ اليها قادة زمنيون يريدون اخضاع المستحيل وتحقيق ما تأباه الحياة .

إن التاريخ لم يسجل في صفحاته تحقيقاً للنظام العالمي وليس هناك ما يشير الى أن العالم سائر نحو هذا النظام الذي ينسخ من الأذهان فكرة الأوطان ومبدأ القوميات . وإذا ما أخفقت جميع المحاولات لتوطيد دعائم هذا النظام ، فلأن الانسان لا يسير بوحيٍ من غرائزه البشرية وخصائصه الاجتماعية، بل يبحث عن علاج يداوي به أسقامه وعلله ويسعى علّهُ يهتدي الى مخرج يقيه شر الحروب والخصومات . إن نظام العالمية رأي ينبت في الحقول الاشتراكية والفوضوية وليس طريقاً للاتجاه الانساني الأصيل . هو رأي يحل الطبقة محل الأمة والمجتمع . انه يزيل الحدود بين الشعوب ليقيم عوضاً عنها حواجز بين الطبقات التي يتكوّن منها المجتمع . فلا يتحدث التاريخ عن الحروب التي تقع بين الأمم بل يروي لنا قصة النزاع الطبقي . والبشرية في هذا لا تكون خطت خطوة واحدة نحو السعادة والسلام. ودون تحقيق هذا المبدأ وازالة مبدأ القوميات صعوبات لم يخلقها البشر ولم تنبثق عن ارادتهم بل نشأت بارادة الحياة وقوتها ومن طبيعة الأرض التي تأهلها ، فالبشرية تتكوّن من سلالات مختلفة تعيش في بقاع أرضية محدودة بحواجز طبيعية ، وتتكلم لغات غريبة ، ولا تدين بعقائد دينية واحدة وتخضع لعوامل اقليمية متفرقة ، وتعيش في حالات غير متشابهة من الوجهتين الاقتصادية والثقافية .

واذا كان التاريخ لم يسجل في صفحاته سابقة للدولة العالمية ، فانه لما يلح في الجوّ بريق للوجدان العالمي . ولا تشكو البشرية لأنها لم تتمكن من تكوين دولة واحدة يعيش مواطنوها

على قدم المساواة ، بل تشكو فقرها في الدواعي الموحدة الجامعة ، وتشكو عقمها الذي لم يتح لها أن تلد سلائق جديدة . ان عوامل التفرقة والتمايز متجسدة في اللغات والاجناس والديانات والأوطان والعروق والأمصار . فاذا ما شئنا ايجاد وحدة عالمية فينبغي أن نزيل كافة الأسباب التي تعرقل هذا المسعى وتجعل التنوع مستمرّاً . ينبغي أن لا يتفاهم البشر إلاّ بلغة واحدة ، ويصبح لونهم واحداً ، وتتجانس التضاريس الأرضية ، والمظاهر الاقليمية ونقضي على مميزات الجنس ونجعل الدين عالميّاً لأنه ما برح من أعظم الأسباب التي تؤدي الى التفرقة والتطاحن والتصادم . ان فظائع رهيبة رافقت ظهوره وانتشاره ، وحروباً وحشية دامت طويلاً . انبثقت عنه ، وحدا بكثير من الجماعات أن تنكمش على نفسها وتتعصب لعقيدتها وتمقت كل من لا يدين بدينها . ويستحيل على الجماعات البشرية أن تلتقي على صعيد واحد وتعتمد ديناً واحداً شاملاً .

يقول البعض إن الانسان قد تدرج من الفردية الى الأمة مارّاً بالعائلة فالعشيرة فالقبيلة فالأمة . والانسان الذي جاز هذه المراحل خلال تطوره المستمر يستحيل عليه أن يبلغ المرحلة العالمية وهي المرحلة الأخيرة . فليست هذه المتحدات سوى دوائر متساوية في الجوهر متفاوتة في السعة والشمول وفي إمكانه أن يتدرّج في ولائه كما تدرّج وتنقل في مراحل اجتماعه . وقد فات هؤلاء أن الولاء المتبادل بين أفراد الجماعة القومية الواحدة طبيعي ليس اصطناعيّاً وليس وليد القوة والتكلف ، إنه منبثق من صميم الحياة المشتركة وما ينجم عن الاشتراك في دورة الحياة الواحدة من وشائج معنوية ومادية . إن الاتصال بالجامعة القومية التي وحدتها الحياة في الوطن واللغة والمنافع الاقتصادية وحلتها بالتسامح الاجتماعي ومكنتها من التفاعل البدني ووحدت مثلها وحدت بها للمساهمة يداً واحدة في بناء حضارتها وأمجادها وصوغ تاريخها ، إن هذا الاتصال عضوي لا بل قسري تفرضه ضرورات الحياة ذاتها . أمّا الخروج الى رحاب الكون ، والتحليق فوق الفواصل المادية والمعنوية ، والتحرر من الغرائز الاجتماعية التي تعمل على تراص المجتمعات القومية فهو من أطوار الرُسل والأنبياء فقط . وما أندرهم في كافة العصور والأمم

ولا يزال النظام العالمي فوق المثالب والمطاعن لأنه لم يتجسد نظاماً يكيف سلوك البشر

ويوضع على المحك ليظهر غثه من ثمينه وخيره من شره . وهو اذا كان مفيداً للجماعات القوية المنظمة التي اكتمل وعيها فانه ويلٌ على الجماعات التي لا تزال في أول الشوط . إن بث هذه المبادىء في عالم تحركه الانانية والمطامع ، والتشدق بالمساواة والانسانية مع عدم الايمان بها مطلقاً يغرّر بالأقوام البسيطة القليلة الخبرة ويحول دون نشوء أية نهضة قومية ويولد التواكل واللاّمبالاة .

ويخطىء من يقول ان بقاء مبدأ القوميات مرهون ببقاء الطبقات « العليا » المكونة من الرأسماليين ورجال السياسة والعمل ، وإن الأوضاع الحالية مناقضة لأماني الجماهير الشعبية وإن هذه المساوىء ستزول حتماً عند ما تؤول الأمور الى يد الطبقة العاملة . وفات هؤلاء أنّ هذه الطبقة ليست سليمة من جرثومة النزاع ، وأن هذه الجرثومة كامنة في بنيتها ، فالنزاع العرقي كائن في صفوف العمال ، والدليل على ذلك ما يلقاه العمال الصفر من المصاعب والاحتقار في الولايات المتحدة وغيرها ، وهناك تحاسد ونزاع خفي بين العمال المحظوظين والمغبونين ، ولا ينفك الاضراب يحدث في صفوف العمال ضد الجماعة العاملة الأجنبية التي تزاحمها على القوت في عقر دارها . وإن النظام الذي تمخض عنه القرن العشرون والسائد في الدول الشيوعية ليس بالنظام العالمي المرجو ، وليس بالترياق الذي يشفي البشرية من أوصابها وعللها المزمنة . انه محاولة فذة لكنها ناقصة جاءت في غير أوانها أو قبل تمامها . ولهذا فانه مني بإخفاق لا نظير له ولا عبرة في التفوق الاقتصادي أو العسكري . لأن مقارنة بسيطة تعقد بين نتائجه وثمار العالم الرأسمالي الذي يسعى لتحطيمه تدحض هذه الحجة وتئدها في مهدها . ففي النظام الشيوعي الذي يروّج له الدعاة أنه النظام العالمي المرتقب لم تتوفر الضمانات الكافية التي تصون حقوق الانسان في الحياة والحرية ، ولم يتوفر الجوّ الصالح لنموّ مواهبه وكفاياته وانطلاق انسانيته . ان الدولة قد طغت على كل شيء وتسرّبت الى كل ناحية وتركزت القوة في يدها وجعلتها أساساً وشرطاً لدوام حياة النظام . لقد تفتقت التجربة الشيوعية عن طغيان الجماعة على الفرد وسلب حقوقه واستباحة وجوه نشاطه. ان صورة الحكم في روسيا الشيوعية قد تبدلت ، لكن الجوهر ظلّ هو هو ، كما كان في عصر القيصرية . لقد كانت السلطة المطلقة بيد فرد . أما الآن فانها آلت إلى حزب . كان الملك يحكم

باسم الحق الالهي ، أما الجماعة فانها تتوسل للوصول الى مآربها بمبادىء تدفع الشعب لاعتناقها والخضوع لها بقوة الحديد والنار .

اذا كانت العالمية ليست تعبيراً صادقاً عن الغرائز الاجتماعية وليست مرحلة نهائية لتطور البشرية ، فهل تكون القومية ثمرة للسلائق البشرية الموروثة ، والتسامي بها هدف التطور؟

اتفقت معظم الآراء على القول إن العصبية القومية بزغت في القرن التاسع عشر وأنها إحدى ثمرات الثورة الفرنسية . إن الحصر في القضايا الاجتماعية لا ينسجم مع مناهج البحث الصحيح . فالقومية ليست خاصة بشعب دون آخر ولا يمكن حصرها في زمن معين . فما من عصر خلا الاّ تجلت فيه هذه النزعة على درجات متفاوتة من الحرارة والوضوح ، وما من شعب الاّ عبر مراراً وتكراراً عن هذه الروح الكامنة في سويداء قلبه . إنها ليست حدثاً طارئاً لا يلبث أن يزول بل انها ميول أصيلة في النفس انها ارادة جامعة موحدة لآمال الجماعة وآلامهم، إنها شعور يخالج الأفراد انهم يتميزون عن سواهم في الخصائص والغايات ومستقلون عنهم في الشخصية والمصير . انها لا تقوم على مميزات بدنية ولا فروق سلالية ولا على عقائد دينية . انها بوتقة تنصهر فيها العروق المتباغضة والعقائد المتنافرة والطبقات المتطاحنة . وأنك لتلمس هذه النزعة في الأقوال التي تعبر عن الحنين الى بقعة من الأرض معلومة محدودة أو الى جماعة معينة من الناس . وهذا الحنين الذي ينضح عن النفس المشوّقة وليد التفاعل مع البيئة . وتتجلى هذه النزعة في الأوقات العصيبة التي تمر بها الجماعة وتهدّد كيانها ومصالحها . فتنعقد الخناصر عندئذ على الموت معاً أو الحياة معاً وتهب للدفاع عن تراث وصيانة أرواح وأموال . وتتجلى أيضاً في اتفاق الجماعة على الخروج من الوطن والانتشار في أرجاء الأرض . ان نابليون لم يفجر الماء من الصخرة بل أنه نبّه الأقوام في أوربا أن فجر عصر جديد قد لاح . ان الشعوب قد استفاقت تحت وطأة الزخم وعلى وقع حوافر الخيول التي كانت تطوف في أوربا تحمل بذور الثورة ولكن تتغير المفهومات وتتبدّل . لقد كنا الى وقت قريب نحسب تلك البذور أفضل ما تمخضت عنه البشرية لأنها مهرت الشعوب بالقوانين بدلاً من الامتيازات التي كانت وقفاً على طبقة دون أخرى ، وحرّرتها من نير العبودية الذي طال ثواؤه على أعناقها . والآن نقول ان كل ما نقاسيه من آلام وما يحل بنا من كوارث وأهوال قد نبتت عن تلك البذور .

لقد شاهدت القرون الوسطى نزعة ترمي الى جمع العالم المسيحي في مجموعة ترتكز على الدين فقط . لكن هذه النزعة ما لبثت أن اعتورها الضعف وبدأ التفسخ يتسرَّب اليها . فان الوحدة في المعتقد الديني لم تثمر التعاون والسير جنباً الى جنب باستمرار . لقد كانت نهاية القرن الثالث عشر للميلاد خاتمة للحروب الصليبية وكل حرب دينية على الاطلاق . لقد انقلبت الحرب من نصرانية الى قومية تعلن باسم الجماعة القومية التي تعلنها وتغذيها بالمال والدماء . فطفق كل شعب يميز بينه وبين غيره ، ويفرق بين مصالحه ومصالح سواه ، وحلت مصلحة الأمة مكان مصلحة الطائفة الدينية . لقد كانت الغاية من الحروب الصليبية انقاذ بيت المقدس من يد جماعة اسلامية ، أما الحروب في العصور القومية فترمي الى الحصول على المناطق التي تتوفر فيها مصالح حيوية . ويرى البعض أن هذا التحول من الفكرة الدينية الى الفكرة القومية عوضاً عن الفكرة العالمية أس الفوضى التي تسود العالم اليوم ، والأخطار التي يتأفف منها البشر ولكي نقضي على الفوضى ونزيل الأخطار يجب علينا أن ننسف المؤسسات الدولية التى تقوم على فكرة القومية التي كانت مهداً لنشوء مساوىء كثيرة .

* * *

إنني أتساءل : هل الشرور التي نصلى عذابها من حروب تزهق فيها الأرواح وتدمر مرافق الحياة ، وبغض يقصي الفرد عن الفرد ، وضيق ينغص العيش . . . هي وليدة مبدأ القومية ، أم انها ثمرة المفاسد الملازمة للطبيعة البشرية ، وثمرة النظرة الفاسدة والخاطئة للقوميات . إننا أسأنا الظن بالقومية وحملناها وزر كل الشرور ، ونعتناها أشنع النعوت . إننا لم نبلغ بالقومية المرحلة التي نتوخاها لها من الصفاء والسمو ، ولم نعهد إلاَّ نوعاً واحداً من القوميات المتطرفة ، القائمة على تأليه الدولة ، الرامية الى الحض على المنافسة العنيفة ، الموغرة الصدور بالبغض والحقد ، المتركزة على فكرة تمجيد الجنس الراضية عن السطو على الضعيف المغتبطة بالنزوع إلى العدوان والسيطرة كرهاً على العالم وامتصاص خيراته ، إن القومية المثلى لا تخنق الانسانية في الانسان وباستطاعة المرء أن يحيا حياة قومية وينزع نزعة انسانية . فكما انه بامكاني أن أكون فرداً في أسرة أعمل لخيرها دوماً ، يمكنني أن أكون عضواً في شركة أو موظفاً أو تاجراً أو عاملاً أو جندياً ، وأساهم في مؤسسة دينية وسياسية

واجتماعية وأكون في نفس الوقت مواطناً في دولة. ويستحيل على جماعة قومية تدرك مصالحها وتريد الخير لأعضائها أن تقف حائلاً بين أفراد رعيتها والعالم الخارجي ، وتقضي عليهم أن لا يساهموا في عملية الأخذ والعطاء والانفتاح لسائر التيارات الفكرية والعلمية وألوان النشاط الأدبي التي يزخر بها العالم. إنها تتبنى كل تراث بشرط أن يكون ملائماً للحياة الجيدة الجميلة. ولا تخفي تراثها كما يفعل البخيل بالأموال التي تتجمع لديه ، وتبيح لأعضائها أن لا يبتعدوا عما يحدث في العالم بل أن يشتركوا فيه بشرط أن لا ينجم عن هذه المشاركة ضرر ينزل بالأمة التي أدين لها بكياني ومصيري ، يتعلق بمصيرها . فلم يحل النظام القومي دون اقتباس أية ثقافة بشرية وتمثلها أو ترجمتها ، ولم يحتكر طرق المواصلات ولا المكتشفات الجغرافية والمخترعات .

* * *

يأخذون على النزعة القومية انها عجزت عن التسامي بالانسان الى درجة التجرد من الأهواء ، والى ايثار الحق اطلاقاً . اننا لم نبلغ هذه المرحلة من التجرد من الغرائز الاجتماعية لا أفراداً ولا جماعات ولم يقع بيننا هذا الكلف بالحق المطلق ، ولم نصل الى مرتبة « اوطيفرون » الذي ينوب عن القتيل في اتهام ابيه القاتل . اننا لا نحجم عن نصرة آبائنا ظالمين ومظلومين وتستمر هذه النزعة لاحقة بنا مصاحبة لميولنا كمواطنين ننتمي الى شعب معين وننتسب الى وطن معلوم . فليس النظام القومي مسؤولاً عن عدم بلوغنا درجة الكمال ، بل الجبلة البشرية هي التي توجهنا وتكيف ميولنا . أفلا يتباغض ويتطاحن ويتنافس أبناء الوطن الواحد ، وتنشب الثورات الداخلية ، وتوجد الطبقات المختلفة ؟ فالروح العدائية ليست وليدة النظم السياسية السائدة بل وليدة المتحدات التي أوجدتها الطبيعة .

ومهما كابر المكابرون فانهم لا ينكرون أن أسمى المبادىء نمت في تربة القومية . ان القومية أخرجت الفرد من صدفة الانانية السيئة ومهدت له السبل للتفتح والاندماج . انها تسعى لكسر القيود الطائفية البغيضة التي تحول دون التحابب والتسامح الاجتماعيين وحاربت الامتيازات الطبقية بغية توفير السعادة للجميع ، وزينت للمرء التخلي عن المآرب والأهداف الصغيرة التافهة والاقبال بغبطة على الخدمة العامة.

إن الدعوة الى انشاء دولة عالمية ليست إلاَّ « يوتوبيا » ، وإنما رأي من جملة الآراء التي تمخضت عنها الأذهان بكثرة ما حاق بالبشرية من أخطار وما حلَّ بها من كوارث . وان هذا الحل الذي تقترحه جماعة ليس بآخر ولا بأفضل حلّ . وان من يتأمل سير البشرية خلال مراحل طويلة شاقة لا ييأس ولا يتشاءم بل إنه يغتبط ويتفاءل . إن جهودها لم تذهب عبثاً وأتعابها جاءت بأشهى الثمرات . أليست الكنوز التي عثرنا عليها وأخرجناها للنور والهواء وطفقنا نستمتع بها وليدة ذلك التنوع البشري الناجم عن مختلف المتحدات وناشئة عن النظام الذي نحاول نسفه ؟ وهل بوسع الدولة العالمية المرتقبة ان تتبرأ مما حققته المجتمعات القومية التاريخية وتجزم بفساده جملة وتفصيلاً ؟ وإذا ما شاءت القضاء على التراث القديم بحجة انه تفتق عن أمم قومية وصبت عليه الزيت والنار ، فعلى أي الأسس تنوي أن تقيم صرح حضارتها ؟ أتعود القهقرى نكاية الى بدء الطريق لتستأنف السير ؟

ظنَّ كارل ماركس أن الناس سيهجرون الأرض لأنها سوف تصاب بالجدب لتتالي الحراثة ولاستثمارها بدون انقطاع . لقد خاب ظنه ولم تصدق نبوءته . فالأرض لا تنفك أبداً تستعيض ما فقدت . وهل كان يدور بخلده ان الانسان سوف يتوصل لصنع مواد مخصبة يمد الأرض بها فتتضاعف خيراتها ؟ وهل كان يحلم ان العلم سوف يمد الانسان بما لا يحصى من المواد الغذائية الاصطناعية ؟

* * *

إن هناك كنوزاً عظيمة من الخير والحق سنعثر عليها في اثناء التنقيب والبحث . فالتعب لن ينال من العامل والبشرية تظل بكراً أبداً . اننا لسنا مضطرين لنسف هذه المتحدات القومية التي ينبثق عنها التنوُّع ومن التنوُّع يتولد الجمال . وهذا التنوُّع كمّاً ونوعاً ، ليس من شأنه أن يعرقل سير الحضارة . انه لا يختلف عن السلم الموسيقي الذي تنشأ عنه أصوات متفاوتة القوة مختلفة الجرس ، لكنها منسجمة غير متنافرة ومتناغمة تطرب الأذن وتسر القلب

(صافيتا — سوريا) الياس يعقوب

السيكولوجية العصرية

من كتاب العصرية بقلم ف . ل . هويلر

Modernity By F. L. Wheeler

من الظواهر الملحوظة ، في الحيـاة الفكرية المعاصرة ، تقدم دراسة السيكولوجيـة تقدماً مشهوداً .

وهي ناحية من مناحي البحث لها سحرٌ وجاذبية ، ويمارسها عدد وفير من الناس ، في سطحية أو في عمق .

وقد أمطرتنا المطبعة بعـدد وفير من الكتب في هذه الناحيـة ، وكان للحرب العالمية الأخيرة ، فضلٌ كبير في توجيه العناية إلى هذه الدراسة ، بالنظر لما تتطلب الحرب من مسائل تتصل بها مثل بعض الشذوذ الجنسي ، والصدمات العصبية التي تنتاب المحاربين ، والاعتلالات العصبية الوظيفية وما إليها .

فهذه المسائل وأشباهها ، أدّت إلى النهوض بالدراسة السيكولوجية ، وبخاصة دراسة التحليل النفسي ، والإيحاء الذاتي ونواحي الشذوذ المختلفة .

ولقد تنوّعت هـذه الدراسة ، وتفرّدت ، واستقلت ، في تفاريعها ، فوجدت دراسة سيكولوجية الجنس Sex ، وسيكولوجية الحلم ، وسيكولوجيـة الاجرام ، والسيكولوجية الاجتماعية ، والسيكولوجية الدينية ، وما ماثلها .

وإذا ذكرنا بالفخر والتقدير ، الباحثين المتعمقين في هذه الفروع المختلفة ، وهم قلال ، إلا أننا لا نستطيع إلا البـرَم من كثرة الباحثين العاديين الذين يخرجون بحوثاً فجة ، أو يمارسون ، في غير زكانة واسعة ، التحليل النفسي .

وإذا أصبحت هذه الدراسة في الوقت الحاضر نوعاً من الهواية العقلية ، بل (مودة) لها اعتبارها ، فان كثيراً من ميادينها الواسعة يطبقها أساتذة صغار ، ويخرجون غالباً بنتائج تورث الاشفاق .

وفضلاً عن ذلك ، فإننـا نجد أناساً يتمشدقون كثيراً ، بذكر كلمات « اللاشعور » و « العقد » والليبيدو Libido ، وغيرها دون دراية لمعناها .

كما ، أنا رأينا من كبار أساتذة السيكولوجية مغالاة في قيم بحوثهم ، ففرويد مثلاً يزعم أن أغلب الأحداث النفسية مرجعها الغريزة الجنسية ، فالأحـلام ترجع الى تعبير جنسي خفي ، والدين كذلك جنسي في الأصل ! لأن محبـة الله ، كما يذكر فرويد ، هو شكل من أشكال التسامي بالحب الجنسي .

ولما كانت أغلب بحوث فرويد ، في متناول الجمهور ، فان هـذه الظاهرة ، قد تغرس في الشباب وعياً غير حميد نحو الجنس .

* * *

ومهما قيل ، فان العصر الحاضر ليدين ديناً كبيراً للسيكولوجيين الكبار الغابرين ، وإذا كانت بحوثهم قد تؤدي إلى ميول غير مرغوب فيهـا ، فان هؤلاء الرجال غير مسئولين عن ذلك ، ويكفي أن بحوثهم في الأمراض العقليـة ، والصدمات العصبيـة ، ونواحي الجنون وغيرها وغيرها ، هي بحوث بالغة القيمة .

وإن رجالاً أمثال ماكدوجال ، وتولس Thouless — وتروتر Trotter وهادفيلد Hadfield وغيرهم قد أدوا لأممهم ، وللانسانية ، خيراً كثيراً

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

بين الشرق والغرب

ضحكت وكان الأحق البكاء   لموتى تباهت بأكفانها
وشعبٌ يحن لمهوى القبور   وآخر جدّ لكيوانها
أناسٌ تمنت حياة الظلام   ودون الهدى سدّ آذانها
وفي الغرب قومٌ تحرق النفوس   تنير السبيل لأوطانها

بغداد   ضياء الدخيلي

اختراع علمي عصري

يدل على نوع الجنين

لكاتب اميركي مشهور

لقد أوشك العلم على تمييز جنس الحمل المستكن في بطن أمه وذلك قبل خمسة أشهر من موعد ميلاده .

كان التنبؤ بجنس الحمل المستكنّ ، مثار شغف من ذويه . فظلّ الدّجالون وكبار الكهنة ودهاقين السحرة يزعمون ، ردحاً من الدهر ، أنهم يعرفون رموزاً ترشدهم الى إماطة النقاب عن هذا السر المحجاب . بل كانوا يؤكدون أن نبوءاتهم تصدق في نصف ما يسألون عنه في هذا الباب .

وكان لحكماء أقاصي المعمورة آراء متباينة في هذا التعيين . ومنها أن الحمل المستكن من البنين ، أنشط حركة من البنات ، وإن كانت هؤلاء يعلونه استكناناً . وأن الجنين الذكر ينشأ عنه نموٌّ ثدي أمه الايمن نمواً يفوقه في الأيسر . وذلك على حين يحدث الجنين الانثى آلاماً في الجانب الأيسر من البطن .

أما الأطباء العصريون فيهزأون بهذه الخرافات . وإنما يعتقدون بدليل أكيد ، هو الذي يتجلى للطبيب المولد قبيل وضع الوليد . ومع ذلك فإن هذا الرأي العصري الشامل ربما لا يصحّ . والمعروف الآن أن العلماء قد شرعوا في اختراع (مِجسٍّ) جديد سيصبح دليلاً على جنس الجنين المستكن ، إذ يصدق في تنبؤاته بنسبة تتفاوت بين ٧٠ ٪ و ٩٠ ٪ وذلك قبل وضعه بخمسة أشهر . وهو مجس يشبه لحدٍّ ما (مسابر الحمل) المعروفة في هذا العصر . ولو صحت الأدلة الأولى المشجعة في هذا الموضوع ، التي وقفنا عليها حتى الآن ، لأصبح في وسع الطبيب ، استخراج « عينة » من دمّ الزوجة الحامل . وارسالها الى معمل كيميائي خاص فلا يلبث أن يتبين جنس الطفل المنتظر .

وكان منشأ العمل الأساسي الذي أفضى الى اختراع هذا المسبار العصري ، الخاص بكشف

جنس الجنين الخفي ، المباحث التي قام بها علماء روسيا . أولئك الذين جربوا تجاربه الابتدائية سنة ١٩٤٢ التي أسفرت عن صدق ٩٠ ٪ من تنبؤاتهم . ولكنهم ما لبثوا أن عدلوا عن مواصلتها مرغمين ، في غضون الحرب العالمية الثانية .

بيد أنه من بواعث السرور ، أن تفصيلات هاتيك المباحث الجليلة ، قد أذيعت عرضاً ، في آفاق العالم ، كما حدث كثيراً لغيرها . اذ اطلع الدكتور . ه . نايبرجس الطبيب في كلية طب جامعة جورجيا الأمريكية ، على تقرير في هذا الموضوع ، نشرته إحدى الجرائد الروسية . فعمد ذلك الطبيب هو وإثنان من زملائه — هما الدكتور روبرت س . جرينبلات ، رئيس قسم تلك الكلية ، الخاص بعلم « الغدد الصم » والدكتور هربرت . س . كيرمان ، الباحث الشاب ، إذ عكفوا على تمحيص مزاعم علماء روسيا ، لتنقيح تجاربهم .

والمعروف أن الحمل يحدث اضطراباً بيناً في توازن الغدد البدنية . وأن طاقة هذا (المسبار) في تمييز الجنين تتوقف على ذلك الاضطراب الطارىء . كما تدور مقدرة مسابر الحمل على هذه القاعدة عينها . إذ يقوم الجسم في غضون الاضطراب الحملي ، بقذف الزائد على حاجته من المفرزات الداخلية التي تفرزها غدده الصم ، وذلك في البول . فاذا تناول الطبيب المختص هذا البول ، وحقن به الفئران أو الجرذان أو الأرانب ، غير البالغة ، عجّل نمو أعضائها الجنسية ، أي أظهر فيها أدلة محسوسة على كون المرأة حاملاً حقيقة ، والعكس بالعكس . فتصدق اختباراته بنسبة ٩٨ ٪ .

أما مسبار جنس الجنين ، فأقل تمييزاً من ذلك ، إذ لم يبلغ الدرجة القصوى في الاقناع المنشود . لأن مسابر الحمل تعتمد في صدق تمييزها على المفرزات الداخلية التي تفرزها المبيضان ، في حين تعوّل المسابر الكاشفة لجنس الجنين ، على المفرزات التي تفرزها الغدة النخامية في جسم أمه وعلى ما تفرزه فيه مشيمتها أيضاً ، لأن هذه الأخيرة تفرز مفرزات داخلية أشبه بما تفرزه الغدة النخامية نفسها .

وقد تكون الغدة النخامية⁽¹⁾ أعجب غدد الجسد البشري وأعظمها شأناً . وهي معلقة في

---

(١) هي غدة توجد تحت الدماغ ، لها وظيفتان أولاهما تأثيرها الشديد في نمو الاحداث نمواً قانونياً . وثانيتهما تأثيرها في نمو العضلات وبعض الغدد الاخرى . وهي بالاخص تزيد افراز البول وادرار اللبن . والامراض الخاصة بها تنشأ اما من فرط مفرزاتها واما من ندرتها

الشطر الأسفل من المخ ، كأنها ثمرة كرز مستقرة في وسط الرأس تقريباً . وفضلاً عن كونها تسيطر على نمو الجسد ، فانها تتحكم أيضاً في حالتي القماءة والعملقة ، وتقوم كذلك بتقوية سائر الغدد . كما تؤثر هذه الغدة تأثيراً شديداً في الغدد الدرقية والكظرين . ويبدو هذا التأثير على أقصاه ، في الغدد الجنسية إذ تنبهها الى القيام بوظائفها في سن البلوغ « الحلم » فتصيّر الفتاة كاعباً والفتى يافعاً .

والبحث الخاص بالغدة النخامية جديد جدًّا . وقد شرع فيه ، جملة ، من سنة ١٩٣٠ ولذلك لم يستطع أحد الباحثين حتى أوائل السنة الحالية ، احصاء المفرزات الداخلية التي تفرزها هذه الغدة فتؤثر في الجنس . فخيل الى بعض الباحثين أنها لا تزيد على ثلاثة مفرزات على حين زعم آخرون أن عددها ١٢ أو أكثر . ولكن المعروف أن الخاص منها بالتأثير في جنس الجنين ، اثنان . هما أولاً ، الافراز الداخلي المقوي للحويصلة ، وهو الذي ينشط المبيض ليفرز أحد مفرزاته . وثانيهما الافراز الأصفر المبيضي . وهذا من شأنه تنبيه المبيضين الى انتاج الخلايا البيضية . وقد تبين للباحثين الروسيين أنه عندما يحتوي دم المرأة الحامل ، على كثير من الافراز الأصفر المبيضي ، مع قليل من الافراز المنبه للحويصلات ، يدل ذلك على ان الجنين ذكر ، واذا عكست هذه الحالة ، كان الوليد المرتقب انثى — ولكن لم يتح لاولئك الباحثين ، تفسير هذه الملاحظة المدهشة ، فبقيت غامضة . وانما كان كل ما تخيلوه في شأنها أن المفرزات الداخلية التي تنبه المبيضين ، الى انتاج خلايا البيض ، لها شأن في انتاج الذكور أعظم منه في انتاج الاناث ، لأنها تنبه خلايا الخصيتين ، وتقوم مقام مقوٍّ للبروستاتة « غدة المثانة » وتنشط انتاج المني . فمن المعقول إذن الظن بأن الجنين الذكر يكون أشد احتياجاً الى هذا الافراز الداخلي ، من الجنين الانثى إليه .

وفي خريف سنة ١٩٤٦ شرعت الجمعية الأميركية ، التي تعمل في مقر عيادتها الخاصة بفحص الأمهات قبل وضعهنّ لمواليدهنّ في التجارب ، وذلك في مستشفى جامعة أوغسطا في ولاية جورجيا ، قصد تعيين جنس الجنين وهو في بطن أمه . فجعل أعضاؤها يقترحون على كل من تهوى منهنّ الوقوف على هذا السرّ الخفي ، المعاونة على تنفيذه ، بأن تتبرع كل سيدة منهنّ بمقدار ٤٠ سنتيمتراً مكعباً من دمها فاستقر رأيهنّ جميعاً على قبول هذه المعاونة .

فيجدر بنا إذن القاء لمحة على تلك التجربة ، لنقف على بعض المعلومات الخاصة بالعقبات التي اعترضت أولئك الباحثين . وكانت أولاها وجوب فرز الدم الذي استخرجوه من النساء الحوامل ، وذلك بالجهاز المألوف لفرز القشدة ، قصد عزل خلاياه الحمر من مصله . لأن المصل هو مقر المفرزات الداخلية . التي تنمّ على جنس الجنين . وتبقى بعد الفرز معضلة أخرى ، هي تقدير ما يحويه المصل حينئذٍ من المفرزات الخاصّة بتنبيه المبيضين إلى انتاج الخلايا البيضية والتي تنشط المبيض لافراز أحد مفرزاته الداخلية .

ويتمّ هذا التقدير بتخفيف ذلك المصل بمحلول ملحي مختلف الدرجات ، وقد تبلغ عشر درجات . وتحتاج كل منها في تجربة تأثيرها الى ثلاث فأرات عذارى . أي ان هاتيك الدرجات تتطلب استخدام ثلاثين فأرة . وفي غضون ثلاثة أيام تحقن كل فأرة منها بسنتيمتر مكعب من المصل المخفف بالمحلول الملحي وعند ما تنقضي ٢٤ ساعة على آخر حقنة لها ، تقتل وتشرّح جثتها لفحصها فتظهر النتائج المرغوب فيها .

وحينئذٍ يعدّ المصل الاضعف تخفيفاً ، الذي ينشأ عنه تضخيم المبيضين والرحم للفأرات تضخيماً ملحوظاً ، مقياساً لتقدير ما يشوب المصل من المفرزات المنبهة للحويصلة . اما مقدار الافراز الاصفر المبيضي الذي يشوب المصل ، فيقاس بما يوجد في مبايض الفأرات من الخلايا التي تولد أحد الافرازات المبيضية . وبهذه المقاييس يتسنّى رسم صورة مضبوطة لما يشوب دم الفأرات ، من الافراز الاصفر المبيضي ومن المفرزات المنبهة للحويصلة التي تلزم لنجاح التجربة . وذانك العاملان ، هما الدليلان على جنس الحمل المستكن كما أوضحه العلماء الروسيون .

ولما استكمل أعضاء الجمعية الامريكية جمع « عينات الدم » من النساء ، في مقر عيادتهم السالفة الذكر ، عكفوا على المباحث الخاصّة بها . ثم تريثوا منتظرين النتيجة التي تظهرها حجرة الولادة . وكانت سلسلة تجاربهم الأولى مؤلفة من ٣٥ امرأة . فتبين لهم من فحصهن أن أكثر من ٧٠ ٪ منهن قد صحت فيهن التنبؤات التي حدثت في شأن الأطفال المولودين ومن ثمة اتضح لهم أن هاتيك النتائج التي ظفروا بها لم تبلغ الدرجة التي زعمها الروس ، وإن أيدتها أساسيًّا . ويسوغ أن يخيل للناس أول وهلة أن هذه الوسيلة معقدة أشد التعقيد ، على حين أنها في الواقع لا تفوق إلاّ قليلاً أية عملية كانت من العمليات المألوفة التي يؤديها كل يوم أي فنيّ متمرّن في معمله الكيميائي .

ومن بواعث السرور ، أن ذينك الباحثين وزميلهما كوبرماز قد أخذوا على عاتقهم تيسير هذه الطريقة الفنيّة وتحسينها حتى تصير أشد إحكاماً وأدقّ إتقاناً مما هي عليه الآن .

ولقد أثبتت دراسة الصبغيات[1] « الكروموسومات » ان جنس الطفل يعين في لحظة الحمل به . وذلك عند ما تخترق نطفة الذكر بيضة الأنثى فتتحد بها وتلقحها . وقد ثبت أيضاً أن الرجل وحده هو المسئول شخصياً عن جنس الطفل وإن كانت النساء هن موضع المدح والقدح في كل زمان ومكان ، إما من جراء ولادة البنين وأما من البنات . إذ النساء يحملن الصبغيات المولدة للاناث فحسب . أما الرجال فيحملون الصبغيات المولدة لجنسي الذكور والأناث كليهما . ومتى اتحدت نطفة الذكر ، حاملة الصبغيات الأنثوية ، ببيضة الأنثى الحاملة للصبغيات ذاتها كانت النتيجة بنتاً . وإذا كان الرجل حاملاً نطفة ذات صبغيات مذكرة ولقح بيضة ، كان المولود ذكراً . وقصارى القول ، إن الوالدات لا تأثير لهن في جنس المولود . واقترح الدكتور إ . نيوتن هارفي العالم البيولوجي في جامعة برنستون طريقة يجوز أن تصبح عملية للتحكم في الذرية . وقد علل مذهبه بقوله « إن نصف نطاف الرجال تقريباً يحتوي على صبغيات مؤنثة ، ونصفها الآخر ، صبغيات مذكرة . وبين ذينك النوعين فرق طفيف في الوزن ، إذ تحتوي الصبغيات المذكرة على كروماتين[2] أكثر قليلاً مما يشوب الآخر ، ولذلك تكون أثقل منها قليلاً .

وفي هذا الصدد صرح الدكتور هارفي قائلاً لم لا تتذرع بالفرازة الى فصل أحد النوعين عن الآخر ، ما دمنا نعرف أن الفرازات المصرية تدور بسرعة فائقة لا يصدقها العقل ، بحيث تزيد على مليون دورة في الدقيقة الواحدة . وبسرعة كهذه يستطيع الجسم الذي يزن أوقية واحدة ، توليد طاقة رحوية تعدل ٢٣٧ طناً ، أي قدر وزن قاطرة ضخمة ! » وبهذه الضغوط الفادحة يمكن فصل مادتين بعضهما عن بعض ، وإن يكن الفرق بين ثقليهما دقيقاً .

فيبدو لنا بهذا الأسلوب إمكان التفريق بين العناصر النطفية المكونة للذكور والاناث . وحينما نظفر بهذه النتائج يتسنى لنا غرس الجزيئات المبتغاة ، وذلك في قناة عنق الرحم فنحصل على النتيجة المنشودة وهي الحصول على الطفل المرغوب فيه » بيد أن هذه الوسيلة لا تجدي كل الجدوى الا في حالة التلقيح الصناعي ، حيث تبذل جماعة الأطباء ، أرباب العيادات الخاصة بممارسة هذه المهمة الشائكة قصارى جهودهم ، في التوفيق بين المميزات الطبيعية للاقح والملقح ، وعند ما تتحقق أماني الدكتور هارفي هذه ، يصير في وسع الآباء المقبلين اختيار ما يروقهم من النسل مطمئنين ذكوراً كانوا أو أناثاً . ولا جرم أن التجارب الأولى لهذا الاختراع ستجرب في الحيوان حتى يتحقق نجاحها فتطبق على الانسان .

عوض جبري

---

[1] أجسام قابلة للتلون تكون في الخلية الحية

[2] الكروماتين — عنصر بدونه لا يكون اخصاب في الخلية

مخترعات الطبيعة

في البدء كان الوجود المادي فضاء غير متناهٍ تسبح في حيّزٍ منه ضويئات (فوتونات) أثيرية ، هي أصل المادة المسماة « الهيولي الأولى » وكان هذا الحيّز الذي تشغله الهيولي متناهياً ، أي له قدرٌ معين . وأما الفضاء فلا نعلم له نهاية

والضويئات الأثيرية ذات خواص تؤهلها للتطوُّر وهي : —

١ — كانت الضويئات تدور على نفسها دورة محورية

٢ — كانت كل ضويئة تجذب زميلتها أو زميلاتها . والجذب سجيةٌ فيها .

٣ — بالتالي كانت الضويئات تتجاذب وتتداور بعضها حول بعض .

٤ — كانت بحكم التجاذب والتداور قابلة للإئتلاف فالتجمع

لولا هذه الخواص الأربع لما كان للهيولي معنى ولا وجود

٥ — لمؤتلفات الضويئات خواص جديدة غير خواص المفردات التي تتألف منها .

من ائتلاف عشرة آلاف ضويئة تكوّن الكهيرب (الالكترون) وله خاصة الكهربية السلبية . ومن ائتلاف ١٨٤٠ كهيرباً أو ما يساويها من الضويئات أي ١٠٠٠٠ × ١٨٤٠ ضويئة تألف الكهنرَب (البروتون) وله خاصة الكهربة الايجابية . ومن هذا العدد نفسه تألَّف أيضاً المتعادل (نيوترون) وهو لا كهربة فيه وإنما فيه طاقة . هذه الجسيمات الثلاثة تسمى ذريرات

من ائتلاف هذه الذريرات الثلاث (الكهرب والكهيرب والمتعادل) تتألف الذرة الكيماوية . وأنواع الذرّات الكيماوية المكتشفة حتى اليوم ٩٢ ذرّة تختلف باختلاف عدد ما فيها من ذريرات . وتسمى الذرّات أيضاً عناصر كيماوية

التجاذب والتداور أدّيا الى التجمع السديمي . والسديم ضباب كوني دقيق رقيق . وهو

مجموعة أجرام ونجوم سموية ، وكل جرم هو مجموعة ذريرات وذرّات متنوعة . النور والحرارة اللذان يصدران من السُّدُم وأجرامها هي ضويئات متناثرة بتموُّج وتسمى أشعة . وتناثرها في الفضاء يسمى إشعاعاً أو تشعُّعاً .

فالائتلاف الذّريري الذي تتكوّن به الذرّة من الذُّريرات هو أول مخترع من مخترعات الطبيعة وبداءة التطورات الكونية .

هذا التطور شامل جميع السُّدُم والاجرام على الاطلاق

التطور الكيماوي

للذرّات خواص التجاذب والدوران كأجزائها الذّريرات التي تؤلف منها . ولما ضربٌ من الائتلاف يرتفع عن ائتلاف الذّريرات يسمى إلفة كيمية . وبه تتألف الجزيئات Molcules عن الذرات الكيماوية كجزيئات الماء والحوامض والأملاح والكولويدات (الغرويات) على اختلاف أنواعها المتعددة . وليس هنا محل لتفسير الائتلاف الكيماوي . وقوة الائتلاف الكيماوي بين الذرّات تتفاوت بحسب عدد الذَّرات التي في كل ذرّة منها بسبب قوة التجاذب بينها . فالكهارب والمتعادلات متجمعة في وسط الذرة ويسمى مجتمعها نواة . والكهيربات تدور في مدارات (أفلاك) حول النواة بعضها ضمن بعض على أبعاد مختلفة . وقوة التجاذب بينها تتوقف على تباعد الأفلاك عن المركز (النواة) حسب قانون الجاذبية

الإلفة الكيمية اختراع ثانٍ من مخترعات الطبيعة . لم يعرف إن كانت هذه الألفة موجودة في جرم سماوي آخر .

المزايا الثلاث لبعض الذرات

لبعض الذرات الـ ٩٢ مزايا خاصة علاوة على الائتلاف الكيماوي . كلما كان عدد الذريرات في الذرة قليلاً كان التجاذب بينها شديداً لاقتراب أفلاكها (مداراتها) للمركز (النواة) كذرات الهيدروجين والهليوم والنترجين والاكسجين والكربون والكبريت الخ لأن كهيرباتها أقرب الى المركز الذي تجتمع فيه الكهارب . وهو معلوم من ناموس الجاذبية أن الجذب يشتد حسب القرب من المركز . وكلما كان عدد الذرات في الذرة الواحدة كثيراً كان التجاذب بين الذريرات ضعيفاً لبعد أفلاك البعيدة منها عن المركز . واليك المزايا :—

(١) لهذا السبب الذرات العليا العديدة الذريرات في جدول الذرات (١) تتناثر منها الذريرات المتطرفة وينفرط عقدها الى فوتونات (ضويئات) بسبب ضعف قوة الجذب فيها الى المركز . وهذا التناثر يسمى اشعاعاً أو تشععاً Radiotion كاليورانيوم والاكتنيوم والثوريوم والراديوم، خلافاً للذرات السفلى في الجدول كالتي ورد ذكرها آنفاً من الهيدروجين فما فوق . فهذه لا تشع ذريرات ولا ضويئات يُشعر بها ، لتماسك ذريراتها بقوة الجذب كما سبق التنويه . هذه هي المزية الأولى لنوع من الذرات أي الاشعاع .

(٢) المزية الثانية ان لبعض الذرات التي في وسط الجدول قوة جذب غير الألفة الكيمية تسمى مغنطيسية وهي ذرات الحديد المغنط والنكل والكوبلت . والحديد أشدها مغنطة ١٠ مرات كمغنطة الآخرين . فالمغنطيسية اختراع ثالث من اختراعات الطبيعة

والكهربائية التي هي تيار الكهرباء الجاري في السلك النحاسي هي اختراع ملحق به لما بينهما من تفاعل — المغنطيس يولد تيار كهرباء في السلك الملتف حوله . والتيار الكهربائي في سلك حول الحديد يمغنط الحديد .

(٣) في أسفل جدول العناصر المشار اليه آنفاً مزية ثالثة لأربعة عناصر (ذرات) خطيرة الشأن لنشوء الحياة من اتحادها وهي الكربون والهيدروجين والاكسجين والنتروجين

أهمها الكربون وهو العنصر الذي لا يخلو منه جزيء مؤلف من عشرين ذرة على الأقل. وقد تبلغ الجزيئات الحيوية التي يسمونها الجزيئات العضوية Orgaric الى خمس مئة ذرة فأكثر كالمواد الزلالية .

الكربون هو العنصر الوحيد الذي تتفاوت فيه وحدات ذرات العناصر الثلاثة الأخرى المؤتلفة معه في الجزيئات الكبرى التي نحن بصددها . لهذا السبب يحسب الكربون عمدة الخلايات الحيوية من نباتية وحيوانية في حين انه لا بد من وجود اوكسجين وهيدروجين معه في الخليات الحيوية ولا يندر أن يوجد فيها النتروجين أيضاً .

---

(١) جدول العناصر الكيمائية مرتب بحسب عدد الكهيربات في الذرات . فالرقم الاول هو للهيدروجين لان فيه كهيرباً واحداً والرقم ٩٢ هو لليورانيوم لان فيه ٩٢ كهيرباً . والارقام التى بين الواحد والـ ٩٢ هي العناصر بين الهيدروجين واليورانيوم بالترتيب

النتروجين عنصر جوهري للحركة في الخليـات والأجسام بسبب انه يأتلف وينحل بالتواتر كثيراً في الجزيئات لانه ضعيف الألفة الـكيمية (لسبب ذريري ليس هنا محل شرحه) ولهذا هو العنصر الجوهري في المواد القابلة للافرنقاع والانفجار كالديناميت .

الحياة

في حضن هذه العناصر الاربعة نشأت الحياة في مواد هلامية جلاتينية Colloidal تكونت كيماويًّا من تلقاء نفسها تحت عوامل الطبيعة الهوجاء . تكونت في خلايا ميكروسكوبية فردية كالجراثيم الاولى في المياه والمستنقعات ثم تحولت الى جسيمات كالفطريات والطحلبيات والطفيليات والهوام والحشرات وأجسام النباتات والحيوانات الخ .

الخليات الحيوية ليست مجموعات من جزيئات فقط ولا هي مركبـات كيموية وحسب بل هي وحدات خلوية حيوية تربط أجزاءها بعضهـا ببعض القوة الحيوية التي فيما بينها . فهي نوع من التجـاذب الهيولاني يختلف عن تجاذب الذريرات في الذرة وعن الإلفة الـكيمية في الجزيء . هي نوع من التجاذب أعلى شأناً من هذين .

ان هذا الترابط الحيوي بين جزيئات الخلية الواحـدة لا يزال سرًّا غامضاً تحت بحث العلماء . وقد سماه بعض العلماء أو سمَّى العـامل فيه « الحماس الحيوي » Eian Vitale وفي نظري الضعيف انه ما خرج عن كونه عملاً كيماويًّا خاصًّا غريباً . وعبارة الحماس الحيوي أبقت أمره سرًّا غامضاً فلم تفسره .

الحياة هي الاختراع الرابع من اختراعات الطبيعة .

تمتاز الحياة على الجماد بالولادة والنمو والتوليد والموت والحركة . بهـذه المزايا تضمن تنوّعها واستمرارها . كلما تقدمت في الزمان ازدادت تنوُّعاً . وهذا التنوع يفضي الى التزاحم فالتنازع فالتغير . وهو التطور .

الجديد من الأحياء يختلف اختلافاً كليًّا عن القديم منهـا . فهو أكثر تعقداً وأوسع انتشاراً . في مضمار التنازع يُبيد الجديد القديم ويحل محلّه .

معمل الحياة الـكيماوي مستمر في التوليد والتجديد بلا انقطاع . ولهذا نرى الأحياء الأولية تعيش معاصرة للأحيـاء العليا كأنها لا تبالي ان تنصرع في النزاع معهـا . ومنها

ما تعيش فيها طفيليات . أعني أن الطبيعة لا تكف عن انشاء الحياة وتوليد الخلايات المادية من المتجمعات القروية في المستنقعات . ولكن الأحياء السابقة المتركزة المستتبة تغذيها ولا تدع لها سبيلاً للتطور والارتقاء إلاَّ نادراً جدًّا . ويغلب أن لا يعيش جديد من الاحياء إلاَّ طفيليات في كنف أحياء مستتبة محتمية بها كالجراثيم المرضيَّة .

أم مخترعات الطبيعة في عالم الحياة انها تجعل من حاصلات الطفيليات عوامل (سموم) قاتلة لها حرصاً على بقاء الاحياء المستتبة . ولولا هذه الخاصية لما أمكن استخراج الأمصال واللقاحات

هكذا نشأ في سلم الأحياء الانسان سيدها جميعاً .

الحياة هي كجذع شجرة في الطبيعة تفرَّعت منها فروع مختلفة من مخترعات الطبيعة هي :

١ — الغريزة .

٢ — العقل — الشعور ، التصور ، التذكر ، الاستدلال .

٣ — الاجتماع — المجتمع ، السلطة ، السياسة ، الاقتصاد ، الشريعة .

٤ — الروح .

٥ — الكهانة — الالوهية ، الديانة ، الفن .

٦ — الضمير — أدب النفس .

٠٠ — ثم ماذا

الغريزة

هي نابض داخلي لعمل جسماني من غير تعقل ولا اختيار ولا داعٍ معقول .

الغريزة شاملة جميع الأحياء من أدناها ذوات الخليات المفردة إلى أعلاها الحيوان فالانسان . أدنى الخليات الجرثومية تأخذ من محيطها غذاءها وتنبذ ما سواه .

جرثومة الأميبا Amoeba إذا اصطدمت بذريرة جمادية كذريرة هباء انكمشت وامتدت نتوآتها من ناحية أخرى . ولكن إذا لامست جرثومة داي اتوم Diatom مثلاً عكفت عليها وطوتها إليها بما ينتوء منها من نوآتىء والتهمتها وهضمتها . الداي اتوم جرثومة تنتمي إلى فصيلة طحلبية تسمى خزّ الماء أو غلفنة (رخصة القوام جدًّا) .

فالشيء الذي في الأميبا يميز بين الداي اتوم والذريرة الجمادية هو الغريزة . كيف ؟ ومن أمثلة الغريزة ان الخلية الحية المفردة متى بلغت الى حجم معين تنقسم الى جرثومتين كل واحدة منهما كالأم الأصلية طبيعةً تفعل هذا بحكم الغريزة . والطير يبني عشه ويهاجر من بلد الى بلد بحكم الغريزة.

الطفل الرضيع وهو خالٍ من التعقّل إذا لمست شفتاه ثدي أمه جعل يمتصه بحكم الغريزة . ونحن بحكم الغريزة نمشي الى الأمام باتجاه نظرنا لا الى الوراء . ونمضغ الطعام بسبب ان الشعور يحرّك عضلات الفكين . جميع الأفعال التي نعملها بغير اختيارنا كالتنفس ونبض القلب هي من قبيل الغريزة .

ما الذي جعل سيقاننا وركبنا لا تتحرك إلا للأمام لكي تسهل الحركة لغريزة المشي ؟ وما الذي جعل شفتي الرضيع تطبقان على الثدي من أول يوم لكي تكون الرضاعة غريزة؟ بعبارة أخرى ما الذي يوجه الغريزة في عملها ؟

يوجه الغريزة عضو الحركة في الجرثومة وفي العضو المختص في الحيوان ؟

المائع (البلاسم) في الأميبا مثلاً يميل بفعل الحماس الحيوي Elan Vitale الى ناحية فينتؤ فيها عندها نتوء . فاذا صدم جسماً رخصاً ليناً كالداي اتوم امتد هذا النتوء وانطوى جسم الأميبا عليه وأدخله فيه .

بأي إلهام يفعل هذا ؟ لا ندري . فنقولُ بإلهام الغريزة . وتبقى الغريزة سراً يبحثه أهل العلم .

هـذا سرٌّ عجيب اخترعته الطبيعة وحفظته لنفسها . ألكي تحير به البشر اخترعته وكتمته ؟ . هل نكتشفه في المستقبل ؟

الغريزة هي الاختراع الخامس من مخترعات الطبيعة

في الجمادات شيء يشبه الغريزة . هو التبلور . تتكوّن البلورة في جسم محدود وشكل هندسي معين . فمتى بلغت الى الحجم والشكل المعينين توقفت عنـدها كأنها تترك الشأن لبلورات أخرى .

كلما تطوّرت الغريزة وارتقت تحوّلت الى عقلية

العقل

نشأ العقل برعمة في غصن الغريزة ولكنه بسق منها عالياً جداً . فكان هو يشمخ وهي تضؤل الى أن أصبحت كأنها أثرية في الأحياء العليا .

لا ندري متى صارت الغريزة في سلم الأحياء تعد عقلاً . بل يصعب جداً أن نميز بين العقل والغريزة أو أن نحكم عند أية درجة افترقا . والظاهر لنا أنهما لا يفترقان . لا غنى عن الغريزة الى جانب العقل حتى في أعلى الأحياء مهما اعتمدنا على العقل . معظم الأعمال التي نعمل بغير تفكير هي غريزة كتذبذب المقلتين في محجريهما لتسديد الرؤية . وكتحريك الجفون لتنظيف المُقَل . وكتوازن الجسم في الوقوف .

العقل في عرف العلماء هو مجموعة القوى العقلية . وأبرزها الشعور والتصوُّر والتذكر والاستدلال . كل هذه نشأت عالة على الغريزة ثم جعلت تمايز بمقتضى المعيشة

ولكن ما هي هذه القوى ، هل هي أعضاء ذات وظائف في جسم الانسان ؟ هل لها ذاتية أو ذاتيات قائمة بنفسها — كلاّ فما هو العقل إذن ؟

العقل فعل من أفعال الدماغ ليس ذاتية قائمة بنفسها . هو فعل من أفعال الخلايا الدماغية، كما ان الضحك من أفعال فكي الضاحك . والمشي فعل من أفعال رجلي الماشي . العقل وظيفة من وظائف المراكز الدماغية العديدة التي تقوم بها ملايين الخلايا كما هو معلوم فسيولوجيّاً

والأرجح أن هذا العمل يحدث نبضات كهربائية سريعة في الجهاز العصبي على نظام لا يزال مجهولاً . وقد ثبت بالامتحان أن في الجهاز العصبي تياراً كهربائيّاً عقليّاً بشكل خاص أليس الدّماغ مؤلفاً من ذرّات؟ أليست الذّرات مؤلفة من كهيربات ؟ . أليست هذه ينبوع الكهرباء ؟ فلماذا لا يكون التعقل كهربائيّاً في خلايا الدماغ ؟

لك أن تقول ان الحوادث الكهربائية العقلية أو الأفعال الفكرية هي فيضٌ Emanations من الخليّات الدماغية كالامواج التي تنبعث من العناصر التشعّعيّة كالراديوم مثلاً . وهي أمواج كهرطيسية .

العقل هو أعجوبة الطبيعة ، عجيب في قوته ، عجيب في أفعاله ، عجيب في اتساعه ، في ضخامته (خياله) . بهر الطبيعة نفسها التي اخترعته . وتغلغل بين ذراتها وذريراتها ، وبين

أجرامها ومجرّاتها . أخضع الطبيعة ، اعتقل قواها ، سخَّر نواميسها لخدمة الجسد الذي يصدره ، نظم العالم الاجتماعي، السياسي والاقتصادي . واستوى على عرش المجتمع . استنبط الخيال . وابتكر الفن واختلق الروح من الوهم وكوّن العقيدة . فابتدع الكهانة وأخيراً اصطنع الضمير ،

العقل عمل كل هذه . وما كان هو إلاَّ غصناً في جذع الحياة التي هي بدعة الهيولي العجيبة . ثم صار فرعاً ضخماً باسقاً أعظم من الغصن .

أليس العقل أعجوبة الكون كله . وما هو ؟ ما هو إلاَّ تحفة فنية في معمل الدماغ . فلله در الدماغ الذي يشع ذلك الحماس ، وينبض تلك القوى ، ويعكس على صفحات الوجود تلك العجائب ، ولله درّ الطبيعة التي اخترعته . ثم قام يتحكم بها ويشمخ عليها . « سبحانك اللهمّ ما أعجب أعمالك كلها بحكمة صنعت » — العقل هو الاختراع السادس .

المجتمع

لك ان تقول ان المجتمع هو وليد الغريزة والعقل معاً لأنه ابتُدع مع نشوء الحياة فتوالدت الجراثيم متجمعة وتنوّعت أفرادها في حين كانت تتجمع . فلا بدع ان نرى كل صنف مستعمرة تتجمع فيها أفراد كل صنف لحاجتين : التعاون على الحياة واتقاء الاضرار . هذه سنّة التجمع من الجراثيم فصاعداً الى الانسان .

المجتمع قديم كقدم الحياة . ثم لما برز العقل جعل ينظم المجتمع تنظيماً يكفل له حيويته وبقاءه . فتفرَّع من نظامه السلطة فالسياسة فالقانون ثم الاقتصاد . وكل نظام من هذه الأنظمة أصبح اليوم عالماً عظيماً قائماً بذاته مضطرباً كبحر خضم .

هذه الأنظمة من مخترعات العقل . وكل نظام متفرع الى أنظمة أخرى لا تكاد تحصيها حتى تجد فروعاً أخرى تفرّعت من فروع .

الروح

من بدع التعقل — التصور والاستدلال والتذكر — التي هي أهم القوى العقلية نشأت الروح وكان الحلم مولدها . رأى الانسان القديم شبح أباه في حلمه فلما استيقظ

استغرب أن يرى أباه وهو يعلم أنه مات ودفن من زمان . فكشف الرمس لكي يتحقق أن كان أبوه لا يزال فيه أو خرج منه . فاستغرب إذ رأى جيفة بالية . فحادث رفيقه في هذه الرؤيا . فقال له رفيقه انه رأى مثلها . وهكذا تحادث القوم في أمر الرؤيا . وأخيراً قال فيلسوفهم ما هذا الذي رأيتموه الاَّ وهم في الحلم ، ولكل ميت طيف يحضر على ذويه أحياناً ، وسماه روحاً . فصاروا ينسبون لهذا الروح قوة وارادة بحسب ما يبديه من كلام ووعيد ووعود . وصاروا يستعبرون أرواح الأموات الى أن جعلوا يقدسونها . وكان لأرواح أبطالهم المقام الأسمى . ومن ثمَّ نشأت الألوهية للعبادة . والعبادة اقتضت الكهانة للقيام بخدمة المعبود وتقديسه والوساطة بينه وبين القوم الى غير هذا من مقتضيات الكهانة . والى جانب الكهانة نشأ السحر تأييداً للعقيدة بقوة الإله .

ولعبت الكهانة دوراً عظيماً جدًّا في تاريخ البشر حتى انها في أكثر الأحوال ظفرت بالسيادة السياسية والادارية . ان تاريخ مصر القديم كله تاريخ الكهانة إذ كان الملك كاهناً قبل أن يصير ملكاً . فكان كاهناً وملكاً معاً .

فنشوء الروح اختراعٌ بديع من مخترعات العقل هو سابع الاختراعات . والكهانة اختراع من مخترعات الروح وهي الثامنة . ومرجع هذه الاختراعات المتسلسلة الى فعل الطبيعة

وما وقف العقل عند هذا الخيال الروحاني بل تبسط في خياله فاخترع الفن . والفن أيضاً من مبتكرات الكهانة ، لأن العبادة اقتضت اكرام المعبود وتمجيده بزخرفة معبده وتمثاله فكان هذا الاقتضاء حافزاً لصنع التماثيل والصور واجادة زخرفتها . وكذلك اقتضت صلاة العبادة الرقص والترنيم . وهذه اقتضت الشعر لنظم الترانيم

ثم إن تعليل الألوهية وأفعال الآلهة اقتضت امعان الكهنة في الفلسفة اللاهوتية ومنها امتدت الفلسفة الى تفسير الكون وظاهراته ونشوئه . ومن الفلسفة نشأ العلم

فما أعظم هذا العقل وما أوسع تفنن هذه الطبيعة وما أعجب اختراعاتها : الائتلاف الذري . ثم الحياة . ثم العقل . ثم ماذا

ماذا في طي هذه الطبيعة بعد ؟

نجيل نظرنا في أطراف فروع العقل المتفرع من الحياة الباسقة من الجماد فنرى برهة

نوّر شرعت تنشق عن زهرة بديعة . ما هي ؟

الضمير : تاسع اختراعات العقل والطبيعة وأعظمها شأناً بعد العقل

ان بقاء الاجتماع متماسكاً مضمونٌ بالعدالة . اذا لم تقم العدالة تمزّق المجتمع . العدالة هي الرابط المكين للمجتمع . هي قوة الجذب بين أفراد المجتمع كما أن الجاذبية هي الرابط المكين لذرّات الهيولي وأجرامها .

فنرى أن السلك الذي ينتظم فيه الكون أولاً وآخراً هو الجاذبية من أول نشوئه الى ما شاء الله من مخترعات الطبيعة .

العدالة اقتضتها سلامة المجتمع . فاذا اقتنع العقل بهذه الحقيقة الراهنة كان اقتناعه هذا هو (الضمير) بعينه . فنرى أن الطبيعة هيأت الضمير لاقرار العدالة وانفاذها لكي يرتبط الأفراد والجماعات بعضهم ببعض حرصاً على صلاحها وسلامتها وهنائها . . ولكي تستقر العدالة يجب أن يكون للضمير سلطان قدير نافذ يسيطر على الحرية ويلزم الروح والجسد والارادة أن ينفذا العدالة . كيف يستطيع هذه السيطرة ؟ هنا الأعجوبة العظمى ، كيف يستطيع الضمير أن يتسلح بقوة ترغم الارادة والعقل على طاعته في فعل الخير ! هذه أعجوبة تاج الأعاجيب لا تزال في بطن الطبيعة . اذا أبرزتها بدأ دهر السعادة للبشر . ما ألذّه حلماً .

الضمير الآن في بدء نشوئه في الانسان . والى اليوم لا يستطيع أن يقوم بوظيفته إلاّ بمعاونة الشريعة وبسلاح القانون والشرطي والقضاء . مع ذلك هذه ليست قوة جامعة مانعة لأن خُلُق الشر في الانسان لا يزال يطغى ويتملص من القانون والشرطي والقضاء . يجب أن تكون قوة التنفيذ في الضمير نفسه . فكيف يمكن هذا ؟

على العقل أن يحل هذه القضية . عليه أن يخترع أداة لتقوية الخير على الشر وأداة لتقويم الاخلاق . فاذا توفق الى خلق أخلاق شريفة في الانسان فعل الأعجوبة التي تفوق جميع الأعاجيب . يجب أن يعرف الإنسان العدالة . انه ليعرفها جيداً . فمعرفة العدالة لا تكتفي بل يجب أن تراد . فكيف يرغم الضمير الارادة على احترام العدالة . هذه مهمة الضمير والعقل الآن . في قلب الانسان شرور وأشرها الطمع . فعلى العقل أن يمحو الطمع لكي يمكّن الضمير من انفاذ حكمه . فكيف يمكن هذا ؟ وهل يمكن ؟

الضمير الآن في دور الطفولة فتى صار ينفذ العدالة بغير سلاح يكن قد أدرك سن البلوغ . فتى يدرك هذه السن . أبعد ألف سنة ؟ أو مئة الف ؟ أو متى . الله هو العليم .

الضمير هو تاج المخترعات . ثم ماذا بعد هذا ؟

ان الطبيعة نَـوْرُ زهرة شرع يفتح فينقلب كِمُّـها من توسعها تدريجيًّا فتبدو الزهرة أوضح فأوضح وأجمل فأجمل .

أو ان الطبيعة لفافة ينقلب ظاهرها عن باطنها طبقة طبقة فيبدو ما في جوفها طاقاً طاقاً أو نطاقاً بعد نطاق آخذاً بعضهـا بحاشية بعض فتظهر من بطن الطبيعـة أسرارها . فبطن الطبيعة مفعم بالأسرار وفي كل دهر ينفضح سرٌّ . وآخر سِرّ اجتابيناه منهـا هو الضمير فماذا بعده ؟

* * *

لا أظن الطبيعة تقف في ابداعها عند حدّ . فماذا بعد الحياة والعقل والضمير من أعاجيب : هنيئاً لخلفائنا الذين سيعرفون الأسرار القادمة .

بقي ان نعلم ما هو غرض الطبيعة من كل هذه المهرجانات . هذا بحث آخر .

* * *

يظهر ان الله تعالى اختصَّ الـكرة الأرضية بموضع أسرار الطبيعة ومنشإ مخترعاتهـا وجعل العقل الذي هو أعظم ما ابتدعته مكمن عجائبها . ولا نعلم ان كان في الوجود المادي جرم آخر غـير الأرض محظوظاً بهذا العجب العجـاب . في رأي العلمـاء إنه ليس في النظام الشمسي سيار له خصائص الأرض . وليس في سيار آخر انس ولا جن . وفي رأيهم أيضاً انه ليس في عالم المجرَّة وغيرها من المجرات نظام كنظامنا الشمسي أنتجته الطبيعة الفلـكية لأن ظرف انبثاق السيارات كان صدفةً . ولا يحتمل أن يصدق هـذا الانبثاق في الأكوان إلا على احتمال واحد من بليون . والله أعلم .

القاهرة نقولا الحداد

باب المراسلة والمناظرة

داعي الاجتماع

طالعت في مقتطف نوفمبر ١٩٤٧ بحثاً مجملاً لقصة المعرفة بعنوان « الانسان هـذا اللغز الاعظم » وقد دبجت البحث براعة الأستاذ فؤاد طرزي . والحقيقة أن الموضوع يثبت أن الإنسان لغز أعظم لما في هذا الـكائن من صفات الخير والشر ولما جهزته الطبيعة من صفات متوائمة ومتناقضة فمن أنبلها الى أحطها ومن غاية في الذكاء الى غاية في السخافة ومن مثال للخير الى أشد منه في الاجرام ومن وديع في النظام الى ثوروي فوضوي ضده ومن بسطة في الجسم الى نحافة فيه ومن صورة عملاق الى قزم وغيرها من التوائم والأضداد . ولقد احتار ولا يزال يحتار المفكرون في أصول تنشئته تنشئة ثابتة الأركان غير مترجرجة حتى وصل بهم المآل الى انه لا يمكن ذلك إلاَّ إذا اشتغل مبضع الجراح في السيطرة على مفرزات غدده الصم وعلى تغيير العوامل الوراثية في كروموسومات خلاياه فعند ذلك يمكن الحصول على الانسان الـكامل أو (السوبرمان) . وعند ذاك لا تتجسم حيرة أبي العلاء المعري حين قال فيه .

والذي حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

هذه فذلـكة بسيطة أوحاها لنا مقال الأستاذ المذكور ولسنا بصدد موضوع تربية الانسان ولـكن الشيء الذي يهمنا هو ما وجدناه في مقال الأستاذ من قوله « فالإنسان مدني بالطبع ، كما يقول ارسطو ، وكذلك هو نزاع الى المعرفة بالفطرة أيضاً وهو يريد الاجتماع بغيره حباً في المعرفة قبل أن يجتمع حباً بالاجتماع » . لا شك أن المفهوم من هذا أن الدافع للاجتماع هو غريزة حب الاستطلاع التي تؤول الى حب المعرفة بينما المعروف والمسلَّم به والذي أقرّه ابن خلدون في مقدمتـه ، هو أن أساس الاجتماع والحافز إليه هي غريزة حبّ الحياة وتتفرَّع منهـا أو تمت إليها كل غرائز الحب سواءٌ أكانت للاستطلاع فالمعرفة

أم للجنس حيث انتظار الحياة الهانئة بالتعاون أو التكافل فيهـا وعليها. نقول هـذا لأن الإنسان في فجر التاريخ يوم كان صياداً كان محاطاً بالحيوانات الوحشية التي أقوى منه سلاحاً وبدناً فاضطرّ الى ان يخرج أسراباً من بني جنسه حتى يتمكن من مقاومتها كما اضطرّ أن يجاور أخاه في كهف أو كوخ أو قرية كي يدفع الخطر الداهم والمنتظر بمعاونته ابقاءً لحياتهما.

ولم تجهّـز الطبيعـة الانسان فقط بهـذه الغريزة بل جهزت الحيوانات بهـا فالطيور المتشاكلة تجتمع سوية. والضفادع سوية. والأسماك. وليست مناظر أسراب الجراد غريبة عن البال والداعي لهذا حفظ الحيـاة بطريقة سلبية أو إيجابية أي بالمقاومة أو الانهزام. فالشيء المجرّب أن الضفادع المتجمعة في غدير تنق إذا ما غاصت إحداها تحت الماء غاصت الأخرى آليًّـا فكأنها آذنت بالخطر وكأنما كل واحدة رقيب. ومن ثمّ فقد قيل «إن الطيور على أشكالها تقع». وما ينطبق على الضفادع ينطبق على الطيور فاذا ما أحسّ أحدها بخطر طار الآخر على طيرانها آليًّـا كذلك.

* * *

نستنتج مما تقـدم أن حبّ الحياة هو الدافع الأصلي للاجتماع وليس حب المعرفة. فاجتماع الانسان بأخيه لا لأجل العـلم بل ليكونا بنياناً مرصوصاً يصد غائلة العدو الخارجي ويعين على العيش بسلامة ويقضي على الخوف ومن ثمّة ينتشر لواء العـلم والعرفان والعمران ونزيد على ما تقدم أن بعض الفلاسفة يقولون أن الانسان وحشي بالطبع لأنه أناني فردي يحب حياته. فلو فرض ان أقفرت بقعة من البقاع من القوت ولم يبقَ لشخص إلاّ ما يسد به رمقه فلا يمكن أن يعطيه لغيره خوف ان يموت وحبه للحياة شديداً. وعلى هذا الأساس الاقتصادي نرى العائلة ذات البيت الواحد تتنازل لأن كل فرد يحب الجمع لنفسه أكثر مما يمكن من مقوّمات الحياة الأساسية. ولولا ذلك لبقي الناس كلهم أسرة واحـدة من فجر التاريخ حتى يومنا هذا. وفي هذه الحال قال أبو فراس الحمداني:

معللتي بالوصل والموتُ دونه إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

غير أن هذا القول ان صحّ اقتصاديًّـا فلا يصح اجتماعيًّـا لأن الحياة تقضي دائماً إذا ما شمل أفرادها التقاطع وإنما أوردتهـا لأبين منتهى غريزة حب الحياة من جهـة المفعول في

مجتمع فرضته نائياً مجدباً لا أمل لتعميم القوت فيه على أفراده . أما في المجتمعات الوارفة العيش فكذلك نرى حب الحياة هو المسيطر على تسيير دفة أمور أفرادها سواءٌ بالفتح أو التجارة أو بأنظمة اجتماعية أخرى غير اني لا أعدم بقولي هذا أهل المروءة وهم قلة وهم الذين يتبعون روح العقل في أعمالهم وهم الذين يشملهم قول أبي العلاء المعري :

ولو أني منحت الخلد فرداً   لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي   سحائب ليس تنتظم البلادا

وعلاوة على ما تقدم فاني أرى غريزة حب الحياة بادية ذات تأثير على سلوك الانسان حتى في آرائه ومقرراته فكم نرى في أوقات الاضطرابات والثورات من أناس يغيرون مبادئهم خوفاً من دكتاتورية الرأي العام وقسم منهم يموتون دفاعاً عن فلسفة لا يعتقدون بها ولكنها ترضي تيار الرأي العام الجارف . فمثل هؤلاء كمثل من أراد النجاة فسلك مسالكها ولكن خانه القدر فوقع في ما كان يتحاشاه لا سيما اذا كان الشخص ذا شخصية تفتقد في المناسبات وكذلك لا يعدم المجتمع أناساً ذوي عقيدة صلبة وتاريخ البشرية يثبت ذلك فكوبرنيكوس أحرق وسقراط جرّع السم ولافوازييه قتل ، والتاريخ الاسلامي مليء بمصارع الأعيان اذن فغريزة حب الحياة هي الداعي الأساسي للاجتماع وإن تلبست بأبراد مختلفة وتبرقعت ببراقع كثيفة فأنت لو دققت وكشفت لوجدتها الهيكل الأساسي في بناء الحضارة والعمران وما أنظمة الانسان الاَّ سائرة بموجب وحيها وعلى نهج ضمانها للمجتمع البشري او الاقليمي بصورة عامة . ولله در شوقي إذ قال .

الحياة الحب والحب الحياة   هو من مرحتها مر النواة
وعلى صحرائها مرَّت يداه   فجرت ماءً وظلاً وجنى

(البصرة)   رشيد السعد

* * *

ملحوظة : جاء في مقال القدرة معقل الروح في مقتطف مارس بقلم ميشيل شبلي السعد والصحيح « رشيد شبلي السعد = رشيد السعد »

موجات الرادار لا أشعته

او موجات الرائد اللاسلكي

حضرة رئيس تحرير المقتطف

جاء في مقال نشره المقتطف في عدد مايو تحت عنوان « حدود جديدة في الفضاء » ان للرادار أشعة ، والحقيقة إنها موجات ، فأرجو نشر ما يلي احقاقاً للواقع العلمي .

كان للرائد اللاسلكي ، أعظم شأن في النصر الذي أحرزه الحلفاء ، على الأعداء في الحرب الخالية ، نصراً فاق ما جنوه من الطاقة الذرّية نفسها . وسوف تكون له منافع شتّى جليلة في أزمان السلم أيضاً . وهو عينٌ سحرية تتيح للطيارين الحلقين في الجوّ ، والمسافرين على ظهور السفن ، والمستقرين على سطح الأرض ، سواءٌ في أثناء الظلام والغيوم أو الضباب أو الغيث أو الدخان ، الرؤية الى أبعاد تفوق ما تبلغه عيون الانسان . وهـذا الجهاز يعمل بالاسلوب الآتي وصفه .

(أولاً) توليد موجات لاسلكية قصيرة . (ثانياً) تَلَقّي الاصداء التي تنجم عن هاتيك الموجات عند ارتدادها عن الجسم القصيّ الذي تصادفه في مجراها . (ثالثاً) توقيت رحلة الموجات عينها في حالتي توجيهها وعودتها ، بغية تقدير بُعد الهدف . (رابعاً) تبيان مبعث ذلك الدويّ بالنسبة لموقف راصده . (خامساً) إظهار هذه البيانات مرسومة رسماً مؤلفاً من خطوط ونقط ضوئية ، على ستار ، أو تكشفها كصور متحركة تمثل خريطة المنطقة المنشودة . والرائد اللاسلكي بصفة كونه سلاحاً دفاعيًّا يستطيع آناء الليل وأطراف النهار ، كيفما تضطرب الأحوال الجوية « أ » اكتشاف الطائرات أو السفن القادمة قبل أن تكشف للعيون البشرية حتى في ريع النهار « ب » تمييز الخاصة منها بالاعداء ومعرفة التابع منها للحلفاء « ج » إرشاد المقاتلين الى اعتراض الطائرات المعادية قبل دنوّها من أهدافها « د » ارشاد المقاتلين ليلاً الى مواقع قاذفات القنابل المعادية حينما تبلغ كل منها مدى أنظارهم . « هـ » تسديد المدافع المضادة للطائرات واطلاقها اطلاقاً ذاتيًّا ، (على الأهداف المتحركة خفية كانت أو نائية عن الابصار) يفوق في إحكامه ما يستطيع المدفعيون تصويبه نحوها عند رؤيتهم إياها ، عن كثب « و » تحريك المصابيح الكهربائية

الكشافة تحريكاً من شأنه استقرارها في المكان الصالح لاظهار القاذفة عند ما تهمُّ بشن غارتها ليلاً. وذلك حالما يدير الرائد اللاسلكي مفاتيح المصابيح عينها.

أما أعماله في حالة الهجوم فهي (أولاً) قذف القنابل آليًّا، على الأهداف المستترة عن القاذفة (ثانياً) تمكين السفينة المزوّدة بهذا الجهاز، من اقتفاء أي مركب آخر، صديقاً كان أو معادياً. فان يكن معادياً، تتعقبه وتطلق نارها عليه فتغرقه. وذلك من دون أن يراها أحد من ركابه (ثالثاً) إظهار منظار الغواصة للطائرة المزوّدة بالرائد اللاسلكي، بينما تكون الطائرة على عشرة أميال من مجال الغواصة (رابعاً) ارشاد جنود الهابطات (البراشوتات) أو الطائرات الشراعية (الخالية من المحركات) الى مناطق هبوطها، وذلك عقب استيلاء الجيش على تلك المناطق، وان اكتنفتها سائر أراضي العدو.

وتنحصر أعمال الرائد اللاسلكي، في الملاحتين الجوية والبحرية فيما يلي: —

(أولاً) رسم خريطة لأي صقع كان، تحلق الطائرة في جوّه، ولو خفيت أرضه عن نظر الطيار (ثانياً) اكتشاف المعالم الارضية أو جبال الجمد، التي تهدد السفن، أيًّا كانت حال الجوّ من الاضطراب، اكتشافاً يفوق بمراحل ما يتجلّى للمرء عادةً عن بعد (ثالثاً) هداية الطائرات الى المناطق الصالحة لهبوطها، أو ارشادها في طيرانها فوقها، وإعادتها الى موطنها سالمة، غير مكترثة لما يطرأ على الجوّ من التقلب. وهذا الى جانب ارشاد قائد الطائرة، بلا وعيه، ارشاداً متواصلاً، حتى يصير على إرتفاع عشر أقدام، عن سطح الارض، من طيرانه، أو ارشاد المنقذين الى مقرها اذا سقطت (رابعاً) تبيان تنسيق سفن القوافل، لأمير البحار، المشرف عليها، تبياناً متقناً يدل على ما عساه يحدق بها من سفن العدو، في أي وقت كان، من رحلتها المقصودة.

وقال عالم انجليزي (متخصص في هذا الفن) وذلك في أحدث مؤلف له: — إني لا أذيع سرًّا إذا قلتُ إن قوام عمل الرائد اللاسلكي هي الموجات اللاسلكية، السريعة التذبذب التي تتولد من مُرْسِلٍ كهربائي. ثم تنطلق في الجو حتى تصادف أي جسم صلب فتنعكس عنه بسرعة الضوء. وإن هذه القاعدة هيّنة في ظاهرها. أما ادارة الجهاز فشيء آخر لأنها غاية في التعقيد فلا يستطيع القيام بها إلاَّ الخبراء» وإن شاء الله تعالى سأفصل في أقرب فرصة كلَّ ما أجملته في هذه العجالة ليتبين للقارىء مبلغ عظمة هذا الاختراع المدهش.

عوض جندي

باب الأخبار العلمية

منهج جديد في كتابة التاريخ

يبسطه كاتب أميركي كبير

زار القاهرة أخيراً الكاتب الأميركي الكبير الأستاذ وليم جيمس ديورانت وهو يعدّ من أقدر المؤرخين المعاصرين ومن أكثرهم اصالة وأوسعهم مجالاً في البحث

وقد أتيح لي أن أقابله وأسأله عن المنهج الذي ينتهجه في كتابة التاريخ فقال :

ان من الخلال البارزة في عصرنا الحالي إننا نعنى عناية قصوى بدرس ما حدث البارحة ولنا من وسائل تحقيق هذا البحث أساليب باهرة . غير أنّ ما حدث من ستة آلاف عام يفتقر أشد افتقار الى عناية منا حتى ليصح لنا أن نقول أننا متخمون بالأنباء متضورون جوعاً الى التاريخ ، ومعنى هذا أننا لا نملك أساساً نستطيع به أن نحكم على الأنباء وندرك كنهها حق ادراك .

وهذا يفسر لنا الموجات الفكرية التي تجتاح بلاداً مدة من الزمن ثم تنجاب عنها كموجة « الملوكية » التي ظهرت في الولايات المتحدة أشهراً ثم اختفت

ودراسة التاريخ هي في جلية الأمر خير فلسفة يتزوّد بها الباحث . ومن التاريخ نروم أن نعرف لا كيف كان يتعين على المرء أن يسلك . بل كيف سلك فعلاً وتصرّف .

وفي وسعي القول إن الرجل ذا الالمام بالتاريخ في طاقته أن يتكهن بأحداث الغد قبل أن تحدث فعلاً لأن بوادر الثورة الروسية كان يمكن اجتلاء طلعتها قبل حدوثها بسنين وسنين لكل من درس التاريخ دراسة امعان وتدبر . وآية هذا أن شبنجلر تكهن في كتابه « ردة الغرب » الذي أصدره عام ١٩٢١ بالموقف العالمي الحالي .

وقال الكاتب الكبير أن السبب في إغفال درس التاريخ هو أن المؤرخين يعرضون أحداثه بكيفية تدل بداهة على مجافاة للواقع مجافاة تامة . فهم يتخيرون مناحي معينة من النشاط الانساني — كنشاط الحكومة أو الاقتصاد أو الدين أو العلم أو الفن أو الموسيقى أو الفلسفة أو الأخلاق — ثم يكتبون تاريخ أمر واحد مجرّد من هذه الأمور ويسوقونه مستقلاً عن العوامل الأخرى .

والواقع ان المرء يحيا بجميع هذه العوامل في وقت واحد وكل عنصر من هذه العناصر يؤثر تأثيراً أساسيًّا في العناصر الأخرى في كل جيل من الأجيال .

وللتمثيل على هذا أذكر ان روائع يوروبيديس تأثرت الى حدٍّ كبير بفلسفة سقراط . كما ان النظريات الدينية عند اليونانيين تأثرت بالروائع الأدبية ليوروبيديس .

وحدث مرة ان بركليس الحاكم صحب زوجه اسباسيا — وكانت تعمل من قبل في سوق الهوى — ليشهدا تمثيل رواية من تأليف يوروبيديس على مرسح ديونيسيوس وفي طريقهما قابلا سقراط . فنحن نرى في هذه الحادثة العارضة تمازجاً بين عنصر الحكومة وعنصر الأخلاق وعنصر الدين وعناصر الأدب والموسيقى والهندسة والنحت والفلسفة وما الى ذلك وإذا أردنا تصوير هذه الواقعة التاريخية تصويراً صادقاً وجب ان نذكر جميع هذه العوامل لتكتمل الصورة وتكتسب حياة واقعية .

والمستر ويل ديورانت مشغوف بكتابة التاريخ طبقاً للكيفية التي بها عاش الأفراد الذين يصنع منهم هذا التاريخ . ولذلك يتعين عليه أن يلم الماماً شاملاً بجميع نواحي النشاط الانساني لتصبح للرواية التاريخية وحدتها وسلسالها .

ودرج المستر ديورانت على اصدار سلسلة من الكتب النفيسة عنوانها « تاريخ الحضارة » صدر منها حتى الآن ثلاثة أجزاء وبقي عليه أن يصدر ثلاثة أجزاء لتكتمل المجموعة .

والسفر الاول من هذه المجموعة عنوانه « تراثنا الشرقي » وفيه يرد المؤلف حضارة أوربا بأسرها الى المنبع الذي نبعت منه وهو القارة الآسيوية .

والمجلد الثاني عنوانه « حياة اليونان » وفيه سعى المستر ويل ديورانت ليدرس حضارات اليونان المنوّعة باعتبارها تفاعلاً لألوان شتى من النشاط وتتبعاً لسيرة حياة « ثقافة » من مهدها الى لحدها

والكتاب الثالث عنوانه « قيصر والمسيح » وفيه يدرس الكاتب تاريخ روما والمسيحية منذ روميليس الى قسطنطين .

أما السفر الرابع « عصر الايمان » فهو استرسال في درس التاريخ من قسطنطين الى دانتي وسيكون ثلث هذا الكتاب مخصصاً للحضارة الاسلامية التي تفتحت آفاقها أمام المستر ويل ديورانت . ويقول الكاتب أن القارئين لهذا السفر من المسيحيين سيعجبون لافاضتي في معالجة الحضارة الاسلامية بينما طلاب العلوم الاسلامية ستصدمهم وجازتي .

ويعالج السفر الخامس « عصر البعث والاصلاح » وفيه يدرس التاريخ الى عام ١٦٤٨ وتختتم السلسلة بكتاب سادس عنوانه

«عصر العقل» وفيه يحاول المؤلف أن يدرس تسلسل معرفة الانسان ونموها ، وهل يؤدي نموها المطرد الى افناء العالم أم الى انقاذه وتحريره .

وربما كانت حضارة الغرب عاجزة عن حل معضلة «العقل» فاذا ثبت ذلك ثبتت تكهنات شبنجلر عن ردة الغرب واندحاره وأصبحت الحقب القادمة مدينة بنهضتها للشرق كما كان الأمر من الف عام .

وقد قال المستر ويل ديورانت إن مصر تجد في ايران مزاحماً قوياً في الشؤون الثقافية الاسلامية وانه يروم أن تدوم هذه المزاحمة لمصلحة النهضة الفكرية العربية .

وختم حديثه قائلاً : في وسعكم أن تنتظروا كتابي عن الحضارة الاسلامية في عام ١٩٥٠

وديع فلسطين

في علاج الملاريا

كتب الدكتور يان كوكس مقالاً عن علاج الملاريا جاء فيه :

أذاع الأستاذ شورت والدكتور جارنهام الاستاذان بمدرسة الصحة في لندن نتائج بحوثهما الأخيرة عن جرثومة الملاريا . وهذه النتائج تعد من أهم ما حققه الباحثون من معلومات عن الملاريا .

فقد فحص هذان الطبيبان أدوار الجرثومة الهلامية المسماة «بلاسموديم سينومولجي» وهي التي تسبب الملاريا عند القردة وأمكنهما من هذا الفحص الميكرسكوبي معرفة الادوار التي تمر بها هذه الجرثومة في تطورها وتأثيرها في كبد الحيوان المصاب . وقد وصلا بذلك الى معرفة ما يسمى بدور «التكوين النسيجي» لهذه الجرثومة وهو طور من أطوار حياتها لم يكن معروفاً من قبل . وقد استطاع الاستاذان أن يقتفيا آثار هذه الجرثومة الهلامية من الانسجة الحيوانية

وجرثومة الملاريا التي تصيب الانسان وتسمى «بلاسموديم فيفاكس» وتسبب أعراض المرض في اليوم الثالث ، قريبة الشبه جداً في تأثيراتها وتطوراتها وحياتها على وجه العموم بالجرثومة التي تصيب القردة والتي توصل هذان الطبيبان الى معرفة سلسلة تطوراتها .

ولذلك فإنَّ ما كشفه الأستاذ شورت والدكتور جارنهام سدَّ فراغاً ظلَّ شاغراً حتى الآن في المامنا التام بالتاريخ المعقد لدورة حياة تلك الجرثومة التي تسبب الملاريا الخبيثة عند جميع الحيوانات الثديية ومنها الانسان

وهذه الجرثومة هي من نوع الكائنات الهلامية الطفيلية ذات الخلية الواحدة ولها قدرة عجيبة على التكاثر بسرعة وهي ذات أشكال وأحجام شتى . كما أن جرثومة الملاريا لها أطوار منوَّعة معقدة في دائرة تطوراتها وإن ما يسبب ظهور الاضطراب والتعب

عند الانسان من جراء اصابته بهذه الجرثومة منشؤه ان غالبية التطورات التي تجتازها تحدث في أثناء وجودها في الكريات الحمر للمصاب وهي فوق ذلك تتغذى منها

وتتكاثر الجرثومة الواحدة — وتسمى في طور التكاثر هذا سكيزونت — بطريق الانقسام. وهكذا ينشأ من كل واحدة اثنتان ولكن يجمعهما الغشاء الخارجي للجرثومة الأولى التي تعدّ نواة التكاثر. وهكذا يستمر التكاثر المزدوج بسرعة فائقة حتى يحدث انفجار في هذا الغلاف الخارجي وتنفصل الجراثيم الناتجة — وتسمى حينئذٍ ميروزويتس — حتى تقوم كل واحدة بدور الجرثومة الأولى. وبطريقة التكاثر هذه تزداد كمية السموم في الدم. وتستمر هذه السموم في دورة المصاب الدموية ويظهر بذلك المرض على الانسان بنسبة كمية السموم الناتجة من تكاثر الجراثيم. فتارةً يظهر المرض كل يومين أو كل ثلاثة أيام أو أربعة

كما أن نوع الملاريا المعروف باسم « برميكيوس » يختلف عن أنواع جراثيم الملاريا الأخرى لأن مدة تطوره تختلف عن مدة تطور الأنواع الأخرى.

أطوار جرثومة الملاريا

وحينما تمتص بعوضة الجامبيا الناقلة للميكروب دم رجل تحمل في جوفها بعضاً من هذه الجراثيم ويحتمل أن يكون فيها الذكر والأنثى. ويحدث تبادل الأزواج في جوف الحشرة ويندمج كل زوج مع بعضه في شكل كائن هلامي ذي خلية واحدة مستطيلة الشكل ويسكن الجدار الخارجي لبطن البعوضة. وهناك تتكاثر هذه الكائنات بواسطة عملية الانقسام وينتج عن هذا التكاثر جراثيم الملاريا التي تسمى « سبوروزويتس » وتمر في مجرى الدم للبعوضة حتى تصل الى جهاز الافراز في البعوضة ولا سيما جهاز افراز اللعاب. وهنا تكون الجرثومة قد مرت بدورها الأول كاملاً وتكون على أهبة الانتقال بطريق الحقن الى الحيوانات الثديية ومنها الانسان طبعاً وذلك حينما تلدغ البعوضة هذا الحيوان لتمتص الدم منه.

ومنذ سنوات ادّعى أحد المهتمين بالملاريا أنه استطاع رؤية الجراثيم التي تصيب خلايا الدم في بادىء انتقالها — وتسمى «سبيروزويتس». غير أن الكشف الأخير الذي حققه الطبيبان يبين أن تطور حياة الجرثومة في داخل دم المصاب ليس بهذه السهولة التي ادّعى هذا الباحث أنه رآها وتمكن من تتبعها.

فقد وجدا أثناء تجاربهما أن دورة جرثومة الملاريا معقدة جداً فمثلاً ان الانسان اذا حقن بدم يحمل ميكروب الملاريا فيمكن علاجه تماماً بواسطة الكينين. وقد لوحظ ان الكينين اذا تعاطاه المريض في أثناء

طور تكاثر الجرثومة المسماة « بارازيتس » يمنع العدوى ويقضي على المرض . أما اذا أعطي المريض المكينين في أثناء تكاثر الجرثومة وهي في طور تكاثرها المسمى «سبوروزويتس» وهي الجرثومة التي تخرج من لعاب البعوضة فانه لا يمنع عدوى الملاريا

ويتبين من ذلك أن هناك فارقاً كبيراً بين العدوى بواسطة الجرثومة في طور السبوروزويتس وبين عدوى جرثومة « البارازيتس » . وهذه الأخيرة في طورها هذا تظهر المرض بسرعة لأنها تكون كاملة التطور في لعاب البعوضة وفي الأنسجة الرخوة بها . أما جرثومة « سبوروزويتس » فانها لا تظهر المرض بالسرعة السابقة لأنها ليست كاملة التطور ولذلك فانها تمر في أنسجة المصاب وتتطوّر في داخلها عدة تطورات ثم تعود فتظهر ثانية في الأجهزة الرخوة الملامية وتسمى بعد تطورها في جسم المصاب بجرثومة تريفوزويتس .

تطورات الجرثومة
في داخل الأنسجة

كانت المشكلة أو الحلقة المَفقودة هي : أي الأنسجة في المصاب تمر بها جرثومة سبوروزويتس وتتطور في داخلها ؟

وظلّ هذا السؤال بغير جواب حتى كان الشهر الماضي حين أذاع الأستاذ شورت والدكتور جارنهام أنهما توصلا الى تحديد تطور الجرثومة في كبد قرد حقن بجرثومة سبوروزويتس سبعة أيام متوالية . وقد أمكنهما ملاحظة الآثار التي تثبت وجود هذه الجرثومة على شكل بقع ملونة في الأجزاء الدقيقة من الكبد . وتبلغ مساحة كل بقعة جزءاً من ثلاثين من المليمتر المربع . وأمكن بواسطة جهاز الديامیتر ملاحظة أن معظم الجراثيم هناك تمّ تطورها أو أوشكت على اتمام دورة التطور الأخير أي أنها في حالة التكاثر المسمى « ميروزويتس » .

الصم يسمعون

يصنع مصنع من المصانع في لندن الآن جهازاً صغيراً جديداً للاستعانة به على السمع لا يزيد حجمه على حجم علبة سجائر مسطحة الشكل .

ويتألف هذا الجهاز من خمسة محركات مستقلة لتشغيله يختار حامله أي المحركات يشاء ويديرها بآلة لضبط سرعة الحركة . ويحتوي كذلك على جهاز صغير للاستقبال وآخر خاص بذبذبة الصوت .

ويدير هذا الجهاز بطاريتان من أحدث طراز تزن كل منهما ثماني أوقيات ونصف أوقية لا غير .

مكتبة المقتطف

الشروق

ديوان شعر : للشاعر حسن كامل الصيرفي : دار المعارف بمصر : ٩٦ صفحة
من القطع المتوسط : ١٩٤٨

عرفت الصيرفي شاعراً منذ أكثر من عشرين سنة ، وعرفته شاعراً هادىء الطبع نيِّر الديباجة ، سهل الأسلوب ، بيّن المعنى جيد المبنى ، قويّ الروح في هدوء ، ثائر الأحاسيس في صمت بالغ ، فلا ينم عن قوة روحه وثورة أحاسيسه إلاّ المعنى المخبوء من وراء الألفاظ المنظومة ذلك النَّظم المنساب انسياب الماء في الغدران الهادئة ، يتسلَّل بين ما يعترضه من عوائق ، تسلُّلاً لا تحسّه ، ولكنه بالغ غرضه الأخير ، حيث تنفسح أمامه الرحاب القصيَّة عند مصبّه ، فاذا بالغدير الهادىء يتحوّل في النهاية بحراً عظيم الاتساع يفيض بالمعاني الأخّاذة والإيحاءات التي تهز النفس من أعماقها هزّاً ، وتنطبع آثارها في النفس انطباعاً قلَّما يزول .

وعرفت الصيرفي فوق ذلك شاعراً صادق الشاعرية ، لم يتكلف يوماً أن ينظم شيئاً تسوق إليه مناسبة من المناسبات لا تخلف في نفسه ذلك الأثر الشعري الذي يهيج في الشاعر شيطان شعره . فلا كوارث الزمن ولا أحداث الحياة عنده إلاّ أوهاماً تمر خيالاتها كأنها الصور المتحركة ، إذا لم تترك في نفسه ذلك الأثر الذي يفتح مغاليق الشاعرية . فاذا بلغت الاحداث من نفسه ذلك المبلغ ، فاض بالمعنى المستخرج من أعمق أغوار النفس ، مصبوباً في قالب شعري رصين . وعلى الجملة فقد عرفته الشاعر الذي لم يخلق للأحداث ، وإنما خلقت الأحداث من أجله . وقلَّما يكون الشعر ذا قيمة ما لم تخضع له احداث الحياة ، فاذا خضع

لتلك الاحداث فهنالك يخرج الشعر عن طبعه ويتبدَّل مزاجه ، فيصير نظماً ، أي كلاماً موزوناً أثره في النفس أتفه ما يكون .

وعنـدي أن أكبر ما يتصف به شعر الصيرفي انه أثر من نفسه ومن عقله معاً . فنفسه نفس شاعر واسعة الآفاق ممدودة الرِّحاب . وعقله عقل حرٌّ ، لم يقف في يوم ما حائلاً اضطره إلى تكلف معنى من المعاني التي كثيراً ما تقحم في الشعر، فتكون كالنكتة السوداء في الورقة البيضاء ، وغالباً ما تلوح للقارىء الناقد كالذبابة في كأس من اللّـبن الصافي .

وكثيراً ما طغت القيود الفكرية على الشعراء ، فكلفتهم ما لا طاقة لهم به ، بل كلَّـفتهم ثمناً باهظاً ، هو فقدان الأثر الشعري جملة ، والحايلة في الشعر كالحايلة في سوق التجـارة ، لا ينجو محترفها من أمرين كلاهما مُـرّ : إمّـا الفقر وإما السّـجن . وما أكثر الذين يتحايلون على الشعر في عصرنا هذا .

هـذا مجمل رأيي في شاعرنا الصيرفي . أمّـا ما يؤيده فكثير في ديوانه « الشروق » : وبخاصة في « جنة الحب » : ص ٣٤

يا جنَّـة الحب قاسٍ أمر رضوانِـك   مُـنِـعتَ عن شدو لحني فوق أفنانكْ
نقَّيت نفسي من الدنيـا وصِـبغتها   وجئت تَصبغُ روحي خيرُ ألوانكْ
فما لبابك لم تُـفتَـح مغالقـــه ؟   وما لروحك لم تخفق لفنّـانكْ

ثم في « الحيرة » : ص ٧٠

يا عالمي أنا ســار في شعاب دُجىً   يلهو بغاية روحي ليـله الصافي
كأنني أنا ثأرٌ ظلّ مشـتِـعلاً   بين الوجود وبين المبهم الخـافي
وكلمـا شاهدت عينـايَ في أفقي   ذاتاً تحقَّـقتُـها أطيـاف أطيـاف
كأنني والأماني فيَّ جائشـــة   أفقٌ تذوب به أصـداءُ هتّـاف
حُـيِّـرت في عالمٍ تطغى عجائبـه   على رؤاه وغابٍ نوره الصّـافي
ما أضيع النّـور في قوم يحيّـرهم   سرٌّ بهيم وكون حالمٌ غاف !

ثم في « الصباح الجديد » ص ٨٦

أيهـا المتعب الذي   حطـم النـاي واستراح

هذه غاية المُنى هذه غاية المَراح
لوعة بعد لوعةٍ فرحة ثم لا تتاح
نغمة في صميمها آهة الحزن والجراح
عالم في محيطه راحة اليأس والكفاح
مبهم كله رؤىً تخلط الجدّ بالمزاح
جزته اليوم عابراً ظُلَمَ الهازل الوَقاح
كم تمنيت لو بدت ظلمة الليل عن صباح !
فاكشف الستر هاتفاً عن أعاجيبه الصبّاح .

* * *

أيها المتعب الذي حطّم الناي واستراح
نم قريراً فقد سرى لحنك العذب في البطاح
فجرك الحلو لم يضع بين أيامك الشحّاح
فهو ما زال سابحاً هاتفاً خافق الجناح
إن يكن غامرَ الدجى فلقد شارف الصباحْ

* * *

وهذا الديوان في مجموعه قطعة من فن شاعرنا الصيرفي ، لا يند فيه شيء عن شاعريته. وقد أتينا بأمثال من شعره الهادىء، فلنختم كلمتنا بشيء من شعره الثائر الذي لا يخرج في ثورته عن طبيعة الشاعر ، التي تخفي وراء ذلك الهدوء عوامل الثورة الحاطمة : قال في «نشيد الثورة» : ص ٨٩

تحرّكْ من صباتك يا فتاها وأرجعْ عزمها وأعِدْ قواها
فقد طغت الخطوب على حماها فواهاً للأبي اذا تلاهى

* * *

تقدمْ بالأماني الصفوفا ولا تخف الصواعق والحتوفا
وأوجدْ من عزائمك السيوفا وأشعل نارها وأثر لظاها

اسماعيل مظهر

جورج برنارد شو

للسيدة فلة فهمي بدوي — المطبعة العصرية — ٣٣ ص من الحجم المتوسط

تطالعك في مفتتح هذا الكتاب صورة وجهٍ جعّده الدهر وغضّنه مرّ السنين، أرخى لحية بيضاء كثة، وعلت رأسه بضع شعرات بيض غير منتظمة. وتشرق في ديباجة وجهه جبهة عريضة انحسر عنها الشباب وأمست نهباً لتفاعيل الأيام.

تلك صورة الفيلسوف الارلندي المتفرّد جورج برنارد شو الذي ولد والعبقرية معه في مهدٍ واحد، ونشأ يصارع الدهر ويجافي التقاليد ويسخر من العرف ويتحدّى كل شيء حتى السماء!

فلم يكن من العجيب إذن، وهذه خلاله وتلك معالمه، أن يكلف الأدباء المعاصرون في كل صقع على تتبع سيرة هذا الرجل المارد النحيل الذي تسجل صحف العالم بأسره كل كلمة من كلماته، وتتندّر القارات الخمس بكل فكاهة يفوه بها.

وكان من الذين استهوتهم شخصية «شو» في مصر السيدة فلة فهمي بدوي فأصدرت عنه كتاباً جليلاً نفيساً عنوانه «جورج برنارد شو... فلسفته وشخصيته».

نشأ برنارد شو — كما تقول السيدة فلّة — في بيتٍ أدمن ربّه الخمر، فسخط على بنت الحان وكره شاربيها ولعن كل من دنا من زقاقها ونقم على كل من عاقرها. وتعلّم وهو بعد في ريّق عمره الاتكال على الذات والتعويل على النفس، فلم يدع لقواعد الوراثة مجالاً كبيراً للتأثير فيه.

آمن في أوانٍ بمبادىء الرأفة بالحيوان، فكفّ عن تناول لحمها وأمسك عن تغذية جسمه بدمها حتى صار معروقاً لا يعرف البدانة ولا الاستكراش. شغف بالموسيقى فكرّس نفسه في هذا الفنّ حتى غدا من زعمائه، بل من نقّاده الممتازين الفحول، ولكنه سرعان ما سئمه، فهجره منتحلاً لنفسه مهنة الأدب وجاعلاً من فروعها صناعةً تدين له بالطاعة ويدين لها بمجده وصيته الطائر واسمه اللامع.

إذا دُعي برنارد شو الى بيت، لم يدع صغيرة إلاّ دسّ إصبعه فيها — كما يقولون في الأمثال — فهو لابدّ أن يشرك نفسه في كل شأن من شؤون الدار، حتى صحاف المائدة

لا بدَّ أن يغسلها ، وتهيئة المقاعد حول نضد الطعام لامعدى عن أن يكون له رأي فيها .

جريء جرأة لا يزاحمه فيها سوى قلّة ، يجاهر بمعتقداته ومعتنقاته ولا يبالي العواقب. ولعلَّ من أبرز معالم هذه الجرأة انه خرج على البريطانيين في عام ١٩٣٦ — والبلاد تنتظمها هبّةٌ واحدة واقفة في وجه ملكها ادورد الثامن المزمع الاقتران بأميركية مطلقة — بقصة عنوانها « زواج ملك » زاد فيها عن حرية الملك في تخيّر شريكة العمر ، وسخر من مناوئي قلب صاحب العرش وازدرى معارضتهم .

إن تاريخ حياة برنارد شو ، تاريخ حفل بالأحداث والطرف . انه سجل لرجل عبقري يحلق في أجواء عليا آبياً أن يباريه في العبقرية أحد ، حتى لقد نعت شكسبير بأنه أبغض الناس إليه . وقال إن صبره لينفد أحياناً ويضيق ذرعاً كلما عرض له اسم شاعر السكسون ، فيودّ لتهدئة أعصابه أن يحفر الأرض ويخرج رفات شكسبير ويقذفه بالحجارة ! . حقًّا إن ذوي الشخصيات القوية يتصادمون وإن كيد الكبار كثيراً ما يجاوز في مغالاته كيد الصغار

والحق إن السيدة الجليلة فلة فهمي بدوي بلغت مرتبة مرموقة من الإجادة في جلاء صفحة حياة شو وفي إبراز مميزات شخصيته ومعالم أدبه ومقوّمات فلسفته ومنهج تفكيره بيد أني أختلف معها في تقدير بعض رواياته ولا سيما مسرحية قيصر وكليوبترا ، فلست أرى فيها جمالاً ولا روعة وهما الصفتان اللتان ألصقتهما السيدة فلة بها .

ولولا هفوات في النحو وكبوات في اللغة لخلص هذا الكتاب الممتع الأصيل من كثير من أوجه النقد ، فلعلَّ الطباعة تتحمل تبعة هذه الهنات .

وديع فلسطين

القاموس العصري

للاستاذ الياس أنطون الياس

بعض الناس يعمل ليومه وبعضهم يعمل لغده وبعضهم يعمل لجيله وبعضهم يعمل لأجيال لما تأت بعد

والأستاذ الكبير الياس أنطون الياس يعد من الفريق الأخير لأنه وقف سنوات طويلة من عمره على عمل واحد جليل هو وضع قواميس باللغتين الانجليزية والعربية يستعين بها أبناء كل جيل تالٍ فضلاً عن أبناء الجيل الحالي

ظهر أول قاموس له في عام ١٩١٣ يجمع بين دفتيه اثنين وثلاثين ألف كلمة انجليزية

ومرادفاتها العربية وبعد ثمانية أعوام أعاد طباعته فزاد عدد كلماته الى ثلاثة وثلاثين ألفاً . وفي عام ١٩٣١ طبعه من جديد فارتفع عدد الكلمات الى ٥٦ ألفاً وطبع طبعة رابعة في عام ١٩٤٣ فبلغت كلماته ٦٤ ألفاً وأردفها بطبعة خامسة في عام ١٩٤٦ أربت كلماتها عن ٦٤٫٥٠٠ كلمة وظهرت في العام الحالي طبعة جديدة سادسة في ٦٥ ألف كلمة و ٨٠٦ صفحات من الحجم الكبير مزدانة بالصور والرسوم

وهذا الجهد لا ينهض به أفراد لأنه فوق طاقة الفرد ولكن الأستاذ الياس أنطون الياس بعزيمته التي لا تفل واخلاصه للعلم وتفانيه في البحث عوّل على أن ينهض بهذا المشروع مهما بلغت تكاليفه وتضحياته وهي تكاليف وتضحيات يدفع ثمنها من نضارة العمر وضوء البصر وتوتر الأعصاب واجهاد البدن وارهاق النفس

و « القاموس العصري » الذي جاء نتيجة هذا العمل المارد الجبار يعد خير قاموس يصل اللغتين العربية بالانجليزية ويربط بينهما . وآية ذلك أن الأستاذ الياس لم يدّخر وسعاً في سبيل ادخال فرائد من الفصحى وشواردها تعبر عن دقائق من المعاني النادرة استخرجها من كنوز اللغة مستأنساً ببحوث أئمة الأدباء التي ظهرت في أمهات الكتب والمجلات والجرائد ولا سيما مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية ومجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربية وأدمج كل ما أقرّه المجمع من كلمات في قاموسه الجديد

وأصدر الأستاذ الياس أنطون الياس كذلك قاموساً عصريّاً آخر « عربي انجليزي » عدا « الانجليزي العربي » الذي أسلفنا الحديث عنه فزاد في طبعته الرابعة الجديدة المزيدة عدد الكلمات العربية ومرادفاتها الانجليزية حتى بلغ عدد كلماته ٦١ ألف كلمة وعدد صفحاته ٨٣٦ صفحة مزدانة بالصور والرسوم

ولا ريب في أن كل من يقدر لصاحب الفضل فضله يقر في فصاحة وجلاء أن الأستاذ الياس أنطون الياس بقواميسه العصرية سدّ فراغاً ما كان في وسع أفراد أن يشغلوه وإنه أسدى للغة الضاد وللغة الانجليزية يداً ستظل مذكورة له على الدوام . ولا غرو بعد ذلك اذا رأينا « القاموس العصري » بشقيه متداولاً في مكتبات العلماء والباحثين ودور العلم العامة والخاصة ودور الصحف في مصر وفي غير مصر . فالأستاذ الياس كما قلنا في صدر هذه الكلمة لم يعمل لجيل واحد وانما عمل عملاً أدبيّاً تتداوله أجيال وأجيال

وتباع النسخة من كل من القاموسين العصريين الانجليزي العربي والعربي الانجليزي بجنيهين ونصف جنيه وهو ثمن قليل اذا قوبل بما أنفق في إعداده من وقت ومال وجهد وعناء وتضحية

فهرس الجزء الاول

من المجلد الثالث عشر بعد المئة

١ التكافل الاجتماعي — نظرية ما في النظام الاجتماعي : اسماعيل مظهر
٨ سحابة (قصيدة) : عدنان مردم بك
٩ نظرات في النفس والحياة — نظرات مارسيل بروست : ع . ش .
١٨ العشائر العربية : وديع فلسطين
٢٥ طنين الآذان — أسبابه وعلاجه : الدكتور عبده رزق
٢٩ وجوه الشبه بين المكسيك ومصر : محمد جميل بيهم بك
٣٣ سياسة الارشاد الاجتماعي : على أي أساس ينبغي أن تقوم : جمال الدين حمدي
٤١ قصة فنان : أحبك حب الحياة (قصيدة) : يوسف جبرا
٤٣ بين العالمية والقومية : الياس يعقوب
٥٤ السيكولوجية العصرية : مصطفى عبد اللطيف السحرتي
٥٥ بين الشرق والغرب (قصيدة) : ضياء الدخيلي
٥٦ اختراع علمي عصري يدل على نوع الجنين : عوض جندي
٦١ مخترعات الطبيعة : نقولا الحداد

٧٢ المراسلة والمناظرة * داعي الاجتماع : رشيد السعد . موجات الرادار لا أشعته أو موجات الرائد اللاسلكي : عوض جندي
٧٧ باب الاخبار العلمية * منهج جديد في كتابة التاريخ . لوليم جيمس ديورانت : وديع فلسطين . في علاج الملاريا . الصم يسمعون
٨٢ مكتبة المقتطف * الشروق : اسماعيل مظهر . جورج برنارد شو : وديع فلسطين : القاموس المصري

٦ — لحق المقتطف

٢٢١ — ٢٦٠ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث : بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي